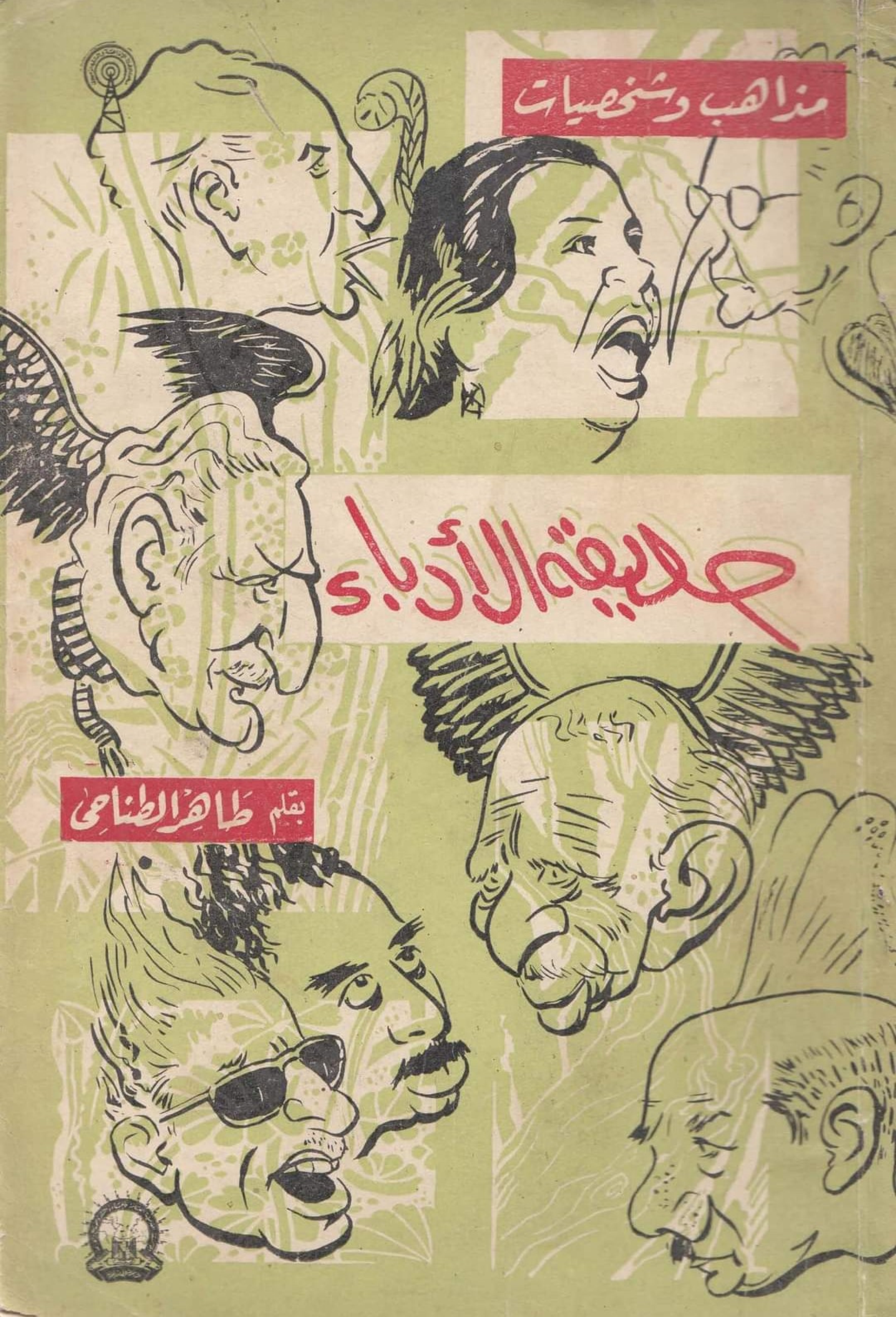

مذاهب وشخصيات
حديقة الأدباء
بقلم طاهر الطناحي

مذاهب وشخصيات

حديقة الأدباء

بقلم: طاهر الطناحي

تقديم

بقلم الاستاذ الكبير
عباس محمود العقاد

فى هذا العصر — عصر الدراسات النفسية — يحسن بنا أن نذكر أن الانسان قديم عهد بهـــذه الدراسات بجميع أبوابها وشعابها ، ومنها شعبة الدراسة « السيكولوجية » للحيوان . .

ولقد وهم بعض المتخصصين لهذه الدراسة أنها مبحث جديد من مباحث القرن العشرين ، وإنها لـكذلك إذا نظرنا إلى أسلوب الدراسة العلمية ، وإلى مصطلحات الأسماء وتفصيلات المذاهب والآراء

ولـكننا إذا — أردنا بها نفاذ الإنسان بفراسته إلى طبائع الأحياء من حوله ، عرفنا أنها ترجع فى القدم إلى سوابق التاريخ البشرى مما قبل التاريخ ، فنحن اليوم نفصل بين أنفسنا وبين الأحياء من حولنا بفاصل واسع عميق من الفوارق الحيوية نسميه أحيانا بالفوارق البيولوجية أو الفزيولوجية ، وقد رأى الروحيون والماديون معا أن الفجوة الفاصلة بين الجنس البشرى وبين سائر الأحياء هوة لا تعبر بمقياس الحياة الروحية ، وهوة لا تعبر كذلك بمقياس العلوم الطبيعية إلا على افتراض الحلقة المفقودة التى يقدرها النشوئيون ، ولا تزال موغلة فى عالم الخيال !

إلى هذا المدى بلغ اعتقادنا بالفاصل بين حياتنا الإنسانية وحياة سائر الاحياء من حولنا ، ولـكن الأقدمين لم يدركوا قط هذا الفاصل بمقياس الجسد أو بمقياس الروح ، فاعتقدوا أن الجنس البشرى وغيره من أجناس الأحياء تتناسل وتتوالد ، واعتقدوا أن فى هذا العالم قبائل من المخلوقات ذكورها كلاب وإناثها نساء ، واعتقدوا

أن المخلوق قد يولد وبعضه إنسان وبعضه حيوان ، وان الأرباب المعبودة عندهم قد تحمل رأس الحيوان بجسم الإنسان كما تحمل رأس الإنسان بجسم الحيوان

وأعانهم ذلك على درس الطبائع والعادات لأنهم نظروا إلى المشابهات بينها غير مقيدين بفكرة سابقة عن امتناع الشبه بين هذه الطبائع والعادات فى أجناس الأحياء على العموم ، فتقدم النوع البشرى شوطاً بعيداً فى المعرفة وهو يتمثل الأخلاق فيما يعرفه من الأحياء ؛ حتى كادت أسماء بعض الحيوان أن تكون عنده مرادفة لبعض الفضائل الإنسانية ، فأصبح اسم الأسد مرادفاً لمعنى الشجاعة ، واسم الثعلب مرادفاً لمعنى الوفاء ، واسم النمر عنده مرادفاً لمعنى السطوة ، واسم الجمل مرادفاً لمعنى الصبر والاحتمال . . .

وقد تلبست الحيوانات بالرذائل كما تلبست بالفضائل فحملوا اسم الطاووس على معنى الزهو والخيلاء واسم النعامة على معنى الحماقة والغفلة ، واسم الحمار على معنى البلادة والعناد ، واسم الكلاب أحياناً على معنى الذلة والهوان

* * *

وهذه نظرات فى طبائع الحيوان توشك أن تحيط بالدراسات « السيكولوجية » الحديثة بغير فارق كبير فيما وراء المصطلحات والتفصيلات ، أو وراء الأسلوب المتبع فى علميات العصر الحديث .

ولكننا — من طريق الفن — نعود منذ زمن طويل إلى أسلوب الأقدمين وإن كنا قد فارقناه من طريق الدراسات العلمية ، فنحن نرمز بالتنين إلى الصين وبالدب إلى الروس وبالنسر إلى الألمان وبالذئبة إلى المدينة الرومانية وبالأسد إلى الدولة البريطانية ، وصور العظماء تظهر بيننا أحياناً فى أزياء الطير أو أزياء السباع ، أو مزيجاً بين الخلائق الحيوانية والآدمية من كل قبيل

وإلى هذه المعانى جميعاً يلتفت زميلنا الأديب المتفنن « طاهر الطناحى » إذ يقول فى مقدمة الكتاب :

« . . . هدفت فى منهجه إلى تحليل دقيق لحياة هؤلاء الأدباء بطريقة فنية جديدة تمتزج برموز من أنواع الطيور والحيوانات البرية والبحرية ، توافق كلا منهم فى الكثير من الخصال والميول والعادات »

ثم يقول: « والرمز بالحيوان للأشخاص ، أو العقائد الدينية والمعانى الأدبية ، أو القوى الطبيعية ، معروف منذ زمن قديم . فقد رمز القدماء لآلهة الخير والشر بأشكال من الطيور والحيوانات ، فصور المصريون الإله (رع) فى شكل صقر فوقه قرص الشمس . . . وصوروا إله البعث (أوزوريس) فى شكل أسد ينهض من مكانه ، كما صوروا إله التحنيط (أنوبيس) فى شكل ذئب على جسم إنسان . وقد رسم الإغريق معانى الحياة الإنسانية والاجتماعية وقوى الطبيعة فى صور وتماثيل لبعض سباع الطيور والحيوانات الأليفة والمتوحشة ، وقصة جوبتير وجاينميد تحكى لنا كيف كانوا يرمزون . . » .

نعم . هذا هو الحاصل بلا مراء ، وهذا هو « المسوغ » الفنى الأدبى ، ولا حاجة بنا إلى المسوغ القانونى ، لتطبيق هذه الرموز على إخواننا الأحياء ممن شملتهم صفحات هذا الكتاب ، ومنهم كاتب هذه السطور .

وأيا كان رأى الزملاء فى هذه الشفاعة الفنية ، أو الصحفية ، فليست بى حاجة إلى تسويغ من هذه التسويغات بشريعة الفن أو شريعة الصحافة ! لأننى صاحب سابقة مسجلة على وعلى إخوان لى فى حديقة الحيوان التى افتحناها منذ أربعين سنة ، وحشرنا فيها جمعنا طائعين مختارين ، ولا نزال نأوى إليها ، حتى اليوم ، حيناً بعد حين .

وقد سجلت افتتاح هذه الحديقة شعرا قلنا فى ديوان سابق ، واعدناه فى « ديوان من دواوينى » منذ ثلاث سنين :

أورفيوس[1] الفن سوَّى بيننا   فتلاقى الدب فيها والقرود
وتغنى فرس البحر بها   ياله من فرس طلق النشيد
ومشى الأرنب والحوت لها   صاحب القاعين من لج وبيد
وتآخى الجدى والضبع وما   بين هذين سوى الثأر اللدود
وجرى (السيسى) فيها شوطه   وهو ناهيك بسيسى عنيد
ولغا البطريق فيها لغوه   وهو من قطب جنوبى بعيد

---

(١) فى أساطير اليونان أن أورفيوس كان يغنى ويعزف فتجتمع إليه السباع وضعاف الحيوان ولا يعدو منها أحد على أحد

وكأنى بالزرافى اجتمعت وحمير الوحش منها فى صعيد

وأوى السنَّور والجرو إلى نمر فيها ، على غير الوصيد[1]

والسلحفاة تجارى عندها أرنب البيداء والكلب الصيود

فتحت أقفاصها واختلطت لا سدود ، لا قيود ، لا حدود

حيوانات نماها آدم وهى من أبنائه نسل فريد

حيوانات ، ولكن بينها كل ذى لب سماوى رشيد

أورفيوس الفن سوى بينها فاستوى المنشد فيها والمعيد

وقصة هذه الحديقة اننا كنا — رهطا من الأدباء والشعراء . والموسيقيين والمصورين والممثلين — نلتقى بحديقة الحيوان بالجيزة ونتساءل خلال الأسبوع : أين نلتقى يوم الجمعة ؟ فنتواعد على جزيرة الشاى بتلك الحديقة ! . . . فلما استبعدنا المسافة واتفقنا على اللقاء بمصر الجديدة أبقينا السؤال والجواب على حاله : أين اللقاء ؟ اللقاء فى حديقة الحيوان . . . وعهدنا إلى المصور الكبير « أحمد صبرى » رحمه الله أن يختار لكل عضو من أعضاء الحديقة قفصه ، فاختار منازلها وسكانها بوحى الفنان البصير ، واختار لنفسه ولبعض زملائنا معه قفص القرود . . على شريطة أن ينطلق منه ولا يحبس بين قضبانه ، فتم الاتفاق على تعميم هذه القاعدة قاعدة الانطلاق ، وأصبحت أقفاصها مفتحة القضبان والأسوار ليل نهار :

فتحت أقفاصها واختلطت لا سدود ، لا قيود ، لا حدود

والفضل لزميلنا المتفنن طاهر الطناحى أنه استغنى عن الأقفاص مفتوحة وغير مفتوحة ، وأطلق نسوره وعقبانه ، وعصافيره ، وتماسيحه بين سماء عالية وبحار مترامية ونقلها من عنوان حديقة الحيوان إلى عنوان يطلق على محفل الإنسان فى أرفع مكان ، وينطلق فيه المنطلقون فى ثياب أوزيريس وجوبتير ، أو ثياب عرائس الأوليمب وأملاك الفلك المنير ، وإنه بالشكر والتقدير لجدير ؟

عباس محمود العقاد

---

(١) اشارة الى الآية : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد .

منهج هذا الكتاب

وضعت هذا الكتاب وضعا جديدا عن حياة طائفة من أدباء العربية وأهل الفن . لم أهدف فيه إلى ترجمة حياتهم ترجمة تاريخية على نحو ما هو متبع فى كتب التراجم ، ولم أرسم فيه هؤلاء الأدباء والفنانين رسما كاريكاتوريا على نحو ما يفهم رجال التصوير فى فن الكاريكاتور الذى يتوخى المبالغة فى التعبير عن العيوب الجسمية ، أوعن الأزياء النابية ، والحركات المصطنعة ، بطريقة هزلية تلفت النظر ، وتثير السخرية والتهكم .

ولكننى هدفت فى منهجه إلى تحليل دقيق لحياة هؤلاء الأدباء بطريقة فنية جديدة ، تمتزج برموز من أنواع الطيور والحيوانات البرية والبحرية ، توافق كلا منهم فى الكثير من الخصال والميول والعادات ! . .

والرمز بالحيوان للأشخاص ، أو للعقائد الدينية والمعانى الأدبية ، أو القوى الطبيعية ، معروف منذ زمن قديم ، فقد رمز القدماء لآلهة الخير والشر بأشكال من الطيور والحيوانات ، فصور المصريون الإله (رع) فى شكل صقر فوقه قرص الشمس ومعنى (رع) فى اللغة المصرية القديمة العمل والقوة والإنتاج والتدبير . وكان فى اعتقادهم انه مدبر الكون .

وصوروا إله البعث (أوزوريس) فى شكل أسد ينهض من مكانه ، كما صوروا إله التحنيط أنوبيس فى شكل ذئب على جسم إنسان ! . . .

وقد رسم الإغريق معانى الحياة الإنسانية والاجتماعية وقوى الطبيعة فى صور وتماثيل لبعض سباع الطيور والحيوانات الأليفة والمتوحشة . وقصة جوبيتر وجانيميد تحكى لنا كيف كانوا يرمزون بالحيوان لآلهتهم . فقد روت أساطيرهم أن جانيميد كان أميراً جميلا من أمراء طروادة ، وكان شابا مكتمل الصحة والشباب والقوة . وكان جوبيتر (أبو الآلهة) يبحث عن ساق له وللآلهة ليسقيهم الخمر ، يكون لائقاً لهذه الوظيفة ، فتنكر فى شكل «نسر» قوى . ، وفى أثناء تحليقه فى الجو باحثاً عن هذا الساقى ، رأى

جانيميد واقفا على جبل « إيدا » فأعجبه جماله ، وأيقن أنه الشخص المطلوب ، وانقض عليه ، وحمله بمخالبه إلى جبل « أولمبوس » العالى حيث جعله ساقيا للآلهة .

وتحكى أساطير الأغريق أنه كانت هنالك عروس ماء تسمى « دافن » وكانت ابنة « بيوس » إله النهر ، وكانت على جانب كبير من الفتنة الرائعة . ولكنها كانت تنفر من الرجال حتى « ابولو » إله الفنون الذى أحبها حباً شديداً، وتبعها وهى تجرى إلى الماء لتختفى فيه كبعض أحيائه ، فأسرع إليها ، وكاد يمسكها ، فصرخت فحولها أبولو إلى شجرة من شجر الغار ! . .

* * *

وقد حكى بعض أدباء الهند والفرس والعرب القصص والحكايات والنوادر والمواعظ على ألسنة الحيوانات ، ورسمت لهذه الحيوانات رسوم وصور مختلفة كما فى كتاب « كليلة ودمنة » لعبد الله بن المقفع ، وكما فى كتب غيره من الأدباء السابقين كسهل بن هرون وعلى بن دواد كاتب « زبيدة » .

وقد جاءت فى « ألف ليلة وليلة » رموز لقوى الطبيعة وغرائب المخلوقات فى صور حيوانات برية وبحرية وجوية ، كطائر الرخ فى قصة « السندباد البحرى » الذى يشبع من فرخه الصغير عشرات من الناس ، وإذا كبر سطا على السفن وكسرها بصخور يلقيها عليها من الجو ، ويستطيع أن يحمل الرجل من جزيرة فى المحيط إلى أخرى تبعد عنها عشرات الأميال .

وقد صور الأفرنج فى العصور الوسطى الاسكندر الأكبر فى حروبه مع أقوام نصف أجسادهم السفلى آدمى والنصف العلوى وحشى ، على شكل سباع وذئاب وفيلة ونمور . . . كما رسموه يحارب جنوداً من الثعابين الهائلة والسلاحف المخيفة رمزاً لقوته وشجاعته ، وتصويراً لمكانته العسكرية الضخمة ! . .

ولست فى حاجة إلى أن أشير إلى أن الدول القديمة والحديثة ، اتخذت من الحيوانات رموزاً تعبر عن شخصيتها وتعرف بها أعلامها وأملاكها وأدواتها الحربية . وقد اتخذ رمسيس الأكبر « الحية » رمزاً لملكه وحكمه ، ووضعها فى أعلى تاجه . . . كما اتخذ الملك خفرع من قبله « الأسد » رمزاً لدولته وعصره ، وأقام « أبا الهول » إلى شمال الطريق الممتد بين المعبد الجنائزى العلوى ومعبد الوادى المنسوب إليه . وهو يمثل رأس

خفرع على جسد أسد رابض على الصخور ، ويرمز الجسد إلى القوة والعظمة ، ويرمز الوجه والرأس إلى العقل والتفكير .

وقد اتخذ صلاح الدين الأيوبى « النسر » رمزاً لسلطانه ورفعة شأنه . وقد أصبح هذا النسر مع تعديل يسير فى شكله رمزا لقوة الجمهوية العربية المتحدة وارتفاع سمعتها بين دول العالم ، واتخذت الدول الأخرى شرقية وغربيةرموزاً لها من الطيور والحيوان والبعض من النبات والأشجار ، كشجرة الأرز ، والبعض الآخر من الأجرام السماوية كالشمس والهلال والنجوم ، وكلها لمعان تميز شخصية كل منها عن سواها .

وقد عبر الشعراء والكتاب عن رشاقة المرأة بالغزال ، وعن جمال عيونها بعيون البقر ، وعن وضاءة الوجه وإشراقه بالقمر والبدر ، وعن طول القامة الهيفاء بأغصان البان ، وعن حلاوة الخدود بالتفاح والورود .

* * *

وهذا التعبير أو التشبيه لا يخرج عن أنه رمز لألوان الحسن والجمال التى هى فى الإنسان خير منها فى الحيوان والجماد والنبات .

فإذا كنت شبهت أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد بالنسر ، والأستاذ عباس محمود العقاد بالعقاب ، والأستاذ ميخائيل نعيمه بالطاووس ، والسيدة أم كلثوم بالبلبل القيثارى الذى وهبته الطبيعة جمالا فى الصوت والشكل ، وجعلت له ذيلا جميلا على شكل القيثارة . وشبهت الدكتور طه حسين بالكروان ، والأستاذ توفيق الحكيم بالعصفور ، والمرحوم أحمد أمين بالطائر المسمى «مالك الحزين» والدكتور محمد عوض محمد بالتمساح إلى آخر هؤلاء الأدباء والفنانين الذين تضمهم صفحات هذا الكتاب ، فإنما قصدت بذلك أن أرمز إلى مواهبهم وصفاتهم ، وأكشف عن ميولهم وعاداتهم فى هذا التحليل المقارن ! .

ولا ريب أننى وضعت نفسى فى منهج صعب الأداء،واخترت فى تحليل حياتهم أسلوباً دقيقاً اقتضانى أن أحذر كل الحذر من السقوط والتقصير ، فليس من السهل أن يجمع الكاتب بين أديب من الأدباء وطائر من الطيور من غير أن يسيء إلى أحدهما أو يسيء إلى الأدب وإلى نفسه بالتقصير وعدم التوفيق . . ولكننى حاولت ألا أكون ذلك الكاتب الذى ينزلق إلى التقصير ويخونه التوفيق .

وقد بعثنى إلى الاطمئنان وشجعنى فى هذا المنهج أن بعض موضوعات الكتاب نشرت فى مجلة الهلال منذ بضع سنوات ، فصادفت من القراء وكبار الأدباء استحساناً ، بل لا أبالغ إذا قلت إن بعض الادباء قبل كتابة مقاله اختار لنفسه الطائر أو الحيوان الذى رمزت

به إليه ، كالأستاذ فكرى أباظه ، فقد اختار « البولدج » والأستاذ عبد الرحمن صدقى اختار « البطريق » طائر البنجوين ، والمرحوم سليمان نجيب اختار «الببغاء» والمرحوم الشاعر إبراهيم ناجى اختار « السنجاب » ! . .

وقد جاءتنى رسالة من أديب لبنان الكبير ميخائيل نعيمة بعد أن قرأ مقاله يقول فيها . .

« عندما وقعت عينى فى هلال شهر مايو على صورة الطاووس المتوجة بعنوان» طاووس الأدب ، أدركت فى الحال أننى المقصود بالصورة ، وأن التعليق عليها هو من قلمك ، فأشفقت عليك ، تزج نفسك فى هذا المأزق، إذ ليس من السهل أن تجمع بين أديب من الأدباء ، وطائر من الطيور ، من غير أن تسىء إلى واحد منهما ولو بإشارة أو كلمة !.. ولكنك يا أخى كنت لبقاً غاية اللباقة ، بل كنت فناناً فيما تخيلت ودبجت ، فأنصفت الطاووس كل الإنصاف ، وأكرمتنى فوق ما أستحق ، فالشكر لك والسلام عليك .

من المخلص : ميخائيل نعيمه

وبعثت كوكب الشرق السيدة أم كلثوم رسالة رقيقة إلى كاتب هذه السطور عندما قرأت مقالها فى الهلال بعنوان « قيثارة الله » قالت فيها :

«تلقيت العدد الأخير من الهلال يحمل إلى ماأرسلته قيثارة الأدب إلى قيثارة الفن فى مقالك الذى جمع بين الشعر والنثر فى انسجام بديع ، ونغم مطرب ، والذى يشف عن دوافع نبيلة ، وعن تقدير كريم ، أعتقد أنه تحية للغناء العربى ، وتقدير للفن أكثر مما هو موجه إلى شخصى .

« وإنى بدورى أوجه باسم هـــذا الفن ، صادق الشكر وعظيم الامتنان ، بقدر ما أرجوه لأدبك من ازدهار ، ولشخصك من سعادة وتوفيق » .

أم كلثوم إبراهيم

ومع إعزازى لهاتين الرسالتين ، فإنى لم أسجلهما هنا إلا لأطمئن القارىء وأطمئن نفسى أنى لم أسىء فى هذا الكتاب إلى أحد من الأدباء والفنانين الذين حللت شخصياتهم بهذا الأسلوب ، وكشفت عن حياتهم النفسية والأدبية والاجتماعية، وقدمت عنهم للقراء صوراً بارزة حية ! . .

وقد راعيت أن أجمع فى هذا التحليل بين الأسلوب الفنى والمعلومات الأدبية والعلمية

والتاريخية لـكل من الرمز والمرموز إليه ، حتى لا يكون التحليل مجرد كلام إنشائى تطغى فيه براعة الإنشاء على ما ينبغى أن يعلمه القارىء من حياة كل منهم فى نواحى الأدب والاجتماع والتاريخ .

ولهذا سوف يمر بك أيها القارىء ، إلى جانب تحليل شخصياتهم ، كثير من الأمثلة الأدبية شعراً ونثرا ، وكثير من الفوائد العلمية والتاريخية ، كيلا تـكون فصول هذا الكتاب فصولا جوفاء أو ذات أسلوب سطحى يصور الوجوه والأجسام كما تصورها المرآة ، بلا كشف عن حقائق النفوس والألباب . . . !

* * *

ولست أزعم أننى ألممت بحياة كل من هؤلاء الأدباء والفنانين إلماماً كاملا ، ولكننى أستطيع أن أقول إننى قدمت للقراء صورة رمزية لـكل أديب وأديبة منهم تدل على شخصيته دلالة واضحة وتميزه عن سواه تمييزاً تاماً فى إطار تحليلى جديد .

وإنى أعتذر إلى زملائى أدباء العربية الذين لم يشرفنى أن أكتب عنهم فى هذا الـكتاب . وأرجو أن أوفق إلى الـكتابة فى فرصة أخرى عن شخصياتهم الأدبية والفنية الممتازة ، وعن حياتهم التى أعتبرها ويعتبرها كل مؤرخ للأدب ثروة نفسية لأدبنا العربى فى العصر الحديث .

طاهر الطناحى

— ١ —

نسر الجيل

احمد لطفي السيد



نسر الجبل

النسر ملك الأجواء ، وسيد الطيور فى السماء . . أرحبُ ذوات الأجنحة صدراً وجناحاً ، وأسرع ذوات المخالب غدواً ورواحاً ، وأرفع ساكنات الجبل مأوى ووطنا ، وأرقى ملوك الغابات فكراً وذهناً ، وأقوى السابحات فى الجو بصرا ، وأبعدها مرمى و نظرا ، وأجلها مكانة وخطرا . .

رفيع المكان ، طويل الزمان ، مرهف الحس ، شريف النفس ، يرى الأشياء على مسافة أميال ، وتسبق فعاله الأقوال ، وتمر به العصور والأجيال ، وهو عظيم المنال ، تهابه الطيور الجوارح ، سواء منها السانح والبارح[1] . وتخشاه أسود الغابات ونمور الفلوات ، وهو على عرش الجو آمن ، وفى منأى من المنازعات ساكن . . أرستقراطى فى حياته ، لا يمتهن نفسه ولا يبتذل غرسه ، ولا يحقر جنسه ، ولا ينزل إلى ما ينزل إليه ساكنات الوديان ، ولا يعيش كما تعيش الصقور والغربان . . بل يرتفع ارتفاع الصواريخ ، ويكاد يبلغ المريخ . حتى سمى العلماء بعض النجوم باسمه ، لمشابهته فى علوه ووسمه ، فقالوا : « النسر الطائر ، والنسر الواقع » ! . .

وهو فى قوته وجبروته ، وفى رفعته وملكوته ، لطيف الطبع ، رقيق القلب ، رحيم النفس ، لا يقسو كما تقسو ذوات المخالب والأظفار ، فينهش فرائسه نهشا . . بل يحملها فى جناحه بعيداً عن القلوب والأنظار ، وينال منها ما حكم به ناموس الحياة فى غير نهم ولا إسراف .

وقد سماه القدماء النسر بفتح النون وكسرها وضمها — والفتح أشهر — وهو بذلك على وزن النصر . وقد اتخذه صلاح الدين الأيوبى رمزاً لدولته

---

(١) الطير البارح : ما يمر من اليمين ، والسانح ما يمر من اليسار .

ونصره ، لما امتاز به من رفعته وقوته ، واتخذته الجمهورية العربية المتحدة رمزاً وشعاراً ضد المعتدين ، كما كان رمزاً وشعاراً لانتصار العرب على الصليبيين .

وكنية النسر عند العرب . . « أبو مالك ، وأبو يحيي » . وهو عندنا اليوم : « أبو الجيل ، وأبو سيد » . فهو فى صفاته النبيلة وطبعه الأصيل أشبه بأستاذ الجيل أحمد لطفى السيد . وإذا كان النسر هو الرمز القومى للجمهورية العربية المتحدة ، فإن لطفى السيد هو الرمز العلمى لجمهورية الفكر العربى ونهضة التعليم الجامعى فى بلادنا العربية ، التى عرفت قدره ، واستفادت من آرائه ، واتخذت رسالته فى الجامعة منهجاً ، ودعامة ونظاما ، ثم ثمرة لتخريج أجيال صالحة ، وشباب عامل لتقدم بلاده ، وسيرها إلى الأمام فى عصر العلم الحديث .

* * *

وقد قالوا إن النسر من المعمرين ، حتى حسب فى الخالدين ، لأنه يعيش ألف عام ، ويتحدى حوادث الأيام . أما لطفى السيد ، فهو خالد بجهوده وأعماله ، وبما فتح الله به على اللغة العربية من إنتاج ضخم ليس كمثله إنتاج . وهو — إلى ذلك — رئيس مجمع الخالدين . . مجمع اللغة العربية . . !

ولقد كانت له جهود فى خدمة هذه اللغة محمودة ، وفى العمل لرفعتها باقية معهودة ، قبل أن ينشأ هذا المجمع بعشرات السنين ، فقد كتب وخطب ، وسعى ودأب ، لتجارى اللغة العربية عصرنا الحديث ، فيما أتى من ابتكار وتجديد مع المحافظة على أسلوبها الفصيح . ولم يدع يوما — كما زعم البعض — إلى اللغة العامية . بل كان منذ ستين عاما ، مناصراً للغة الفصيحة . وهو الذى حفظ القرآن الكريم كله فى سن الثانية عشرة ، وقرأ الكثير من كتب الأدب ودواوين الشعراء . وكان أسلوبه فى الجريدة وفى كل ما كتب مثالا يحتذى فى الأسلوب البليغ واللغة العالية . وقد كتب فى إحدى مقالاته فى « الجريدة » سنة ١٩١٣ الميلادية . . رداً على الذين اتهموه بأنه يدعو إلى العامية . . حين دعا إلى استعمال المخترعات الحديثة كما هى بلا تعسف فى تعريبها ، أو تكلف فى اشتقاقها فقال :

« يضحكنا أن يقال إننا نريد هجر الفصاحة ، وإماتة اللغة العربية لنأخذ بزمام لغة عامية ، لا تصدر عن قاعدة ولا تؤدى غرض البيان !.

« يضحكنا أن يتهمنا بذلك أولئك الذين ما فتئوا يتهموننا بالتقعر مرة ، وبالاغراب مرة أخرى . ولئن أضحكنا ذلك ، لقد يحزننا أن تكون الأحكام مبنية على الإشاعة . لأننا على يقين بأن الذى يقرأ ما كتبناه فى اللغة العربية يستحيل عليه أن يحكم علينا بأننا نعادى فصاحة الألفاظ ، وبلاغة الأساليب » .

* * *

وإذا كان من طبيعة النسر الطيران فى الأجواء العليا ، فقد كان أحمد لطفى السيد — وما زال — يعيش فى أجواء التفكير العالى . . حتى فى الصحافة ، فقد مارسها من جانبها البناء الرفيع ، جانب الدعوة إلى الحرية والاستقلال ، وإلى المبادىء الديمقراطية الصحيحة . وقد سخَّر قلمه لهذه الغاية زمناً طويلا ، دبج فيه عدة مقالات نفيسة ، تعد دستوراً فى النهضة القومية ، والجهاد الوطنى. وقد قال فيما قال عن الحرية فى ذلك الحين :

« الحرية غرض الإنسان فى الحياة . . كانت ولا تزال هواه الذى طالما قدم له القرابين ، وأنفق فى سبيله أعز شىء عليه . كانت ولا تزال أشرف حال يرضى بها الرجل ، وأعلى وصف يبقيه لنفسه

« من تقاليدنا القديمة ، وعاداتنا الحديثة أن يمدح الرجل بأنه رجل حر من قوم أحرار ، وأن يذم بأنه عبد من قوم عبيد .. ذلك بأن الحرية قاعدة الفضيلة ، ومناط التكليف ، فأى إنسان خمدت فى صدره نار الحرية ، واظلمت جوانب عقله من شعاعها الساطع جدير بألا يعتبر إنســـانا ، وأن تسقط عنه تكاليف الحياة . . . » !

* * *

أما الفلسفة ، فقد عاش فى برجها العالى مع الفلاسفة العظام أساتذة الأجيال الكرام ، وخدم أرسطو بترجمته إلى العربية ، وإحياء آرائه الفلسفية وكتبه القيمة فى هذه اللغة ، وخدم اللغة العربية بإهدائه إليها هذه الترجمة

الرائعة ، وهى كتب لايقوى على ترجمتها إلا مجمع كبير ، هضم النظريات الفلسفية ، وعرف أصولها وجذورها ، وعرك بحوثها وأغراضها ، وانتهى فيها إلى حقيقة الحقائق .

وقد قام أستاذ الجيل ، والنسر المحلق فى الفلسفة العليا ، بما كان يقوم به هذا المجمع ، فترجم كتاب الأخلاق وكتاب السياسة ، وعلم الطبيعة ، والكون والفساد .. بأسلوب بليغ ، وترجمة علمية دقيقة !

* * *

وقد ذكرنا للنسر كنيتين ، ولأستاذ الجيل كنيتين .. ولكن للطفى السيد كنية ثالثة .. كنية تعود إلى أصالة الوطنية والجهاد الوطنى فى نفسه وسيرته .. تلك هى : « أبو مسلم » !

ولهذه الكنية قصة .. فى سنة ١٨٩٤ م حصل على ليسانس الحقوق وتقلد فى النيابة عدة مناصب ، وكان فى ذلك الحين يسعى مع زملائه الشباب فى سبيل تحرير وطنه من الاحتلال البريطانى .. ثم مالبث أن استقال من وظائف الحكومة وألف، مع المرحوم الزعيم الشاب مصطفى كامل فى نحو سنة ١٩٠٠ جمعية سرية تعمل لخدمة البلاد ، ثم مالبثت هذه الجمعية أن انقلبت إلى حزب وطنى سرى برياسة الخديو عباس حلمى الثانى ، وقد أطلق الأعضاء عليه اسم « الشيخ » ، وأطلقوا على كل منهم اسماً مستعاراً أيضاً فكان مصطفى كامل يدعى « أبو الفداء » ، وكان لطفى السيد ، يدعى « أبو مسلم » حتى لايفسد المستعمرون عليهم جهودهم فى سبيل الوطن إذا ما عرفوا حقيقتهم .. !

ولقد طار أبو مسلم فى ذلك الحين إلى سويسرا ليخدم القضية الوطنية فى أوربا بالاتفاق مع رئيس الحزب وأعضائه ، فقضى عاماً ونصف العام . ولكنه اختلف مع الخديو عباس فعاد إلى مصر ليخدم فيها ضد الاستبداد ، وضد الاحتلال البريطانى !

جاهد نسر الجيل طويلا ، وحارب الانجليز فى أوج سلطانهم بمصر وخاصم الخديو عباس فى أوج سلطته ، وهاجم سياسته بمخلبه الحاد ، وأظفار نقده القوية . ووقف منه موقف العزة الوطنية ، والكرامة العربية ، واضطر

الخديو إلى أن يصلح ما أفسده ، وأن ينهج فى ذلك الحين النهج الوطنى . وقد بعث إليه رسولا ليقابله فى قصره ، على أن يطلب لطفى السيد مقابلة سموه كما جرت العادة ، فأبى لطفى السيد ، وقال للرسول :

« إذا أراد الخديو لقائى .. فليدعنى »

ولما دعاه وتمت المقابلة ، ودعه الخديو ، وهو يقول :

« تعال عندى يالطفى كل يوم سبت »

فأجابه فوراً :

« يامولاى ما شأن الكاتب والاتصال بالسلطات » !

يريد بذلك أن الكاتب الحر ينبغى ألا يستوحى آراءه من الحكام . فقال له الخديو :

« إذن أنت لا تريد أن تأتى عندى » !

فقال لطفى السيد :

« الواجب — يامولاى — أن أجىء كلما أدعى لشأن من شئون الوطن » !

وكذلك منطق الكاتب الحر وشيخ النسور لصاحب العرش وساكن القصور .. فقد ربأ بنفسه أن يكون ساعياً إلى الأعتاب ، أو واقفاً على الأبواب ، أو مستوحياً رأياً لحاكم أو سلطان .. بل عاش حراً شريفاً ، مترفعاً عفيفاً ، مخلصاً لوطنه وقومه ، محترماً لرأيه وقلمه .. مهيب الجانب فى غير بغض ، كريم النفس فى غير ضعف ، كبير التواضع فى غير تفريط ، واسع الصدر فى غير إفراط . حتى إذا جد الجد ، وثارت الأمة فى وجه الاستعمار وطالبت بزوال الاحتلال .. كان من أوائل الزعماء العاملين ، ومن قادة الدعوة إلى الاتحاد بين المواطنين .

ولكنه لما تنافرت النفوس ، وتغايرت العواطف والرءوس ، وانقسم القوم إلى عدلى وسعدى وإلى دستورى ووفدى ، وتلاحى الفريقان دون مصلحة

الأوطان . أبى أن يخفض جناحه ، وينزل إلى هذه الساحة ، وولى وجهه نحو محراب العلم والكياسة حين امتهن محراب الوطن والسياسة ، فأدى للعلم حقه ، وللفلسفة خير جهوده ، وخدم من هذا المحراب نهضة البلاد ، ونأى عما تجره الحزبية من التناحر والتأخر والفساد .. وكان كما قال فيه أحمد شوقى حين اصدر ترجمة كتاب الاخلاق لأرسطو :

لما تَـلاَحَى النـاسُ لم تنزل إلى المرعى الوَخيم
وشَـغلتَ نفسكَ بالخصيــب مـهجن الود عن العقيم
فخدمت بالعلم البــلا دَ ، ولم تزلْ أوفى خَـديم
والعــلمُ بنّــاءُ المــآ ثرِ ، والممالكِ من قديم

أو كما قال فيه حافظ ابراهيم :

انى قرأتُ كتابهُ بين الخُـشوع والاعتبار
فإذا المـترجمُ ماثلٌ جنبَ المؤلف فى إطار
وعليهما نورٌ يفيــضُ من المهابة والوقار
قالوا لقد هجر السيا سة وانزوى فى عقر دار
ترك المجال لغــيره ورأى النجاة مع الفرار
لاتظلموا رب النهى وحذار من خطل حذار
هجر السياسة للسيا سة لا لنومٍ أو قرار
لو أنهم علموا الذى يبنى لهم خلف الستار
لسعوا إلى حامى الفضيـ لةِ والحقيقة والذمار

— ٢ —

العقاب المنيع

عباس محمود العقاد

العقابُ المنيعُ

خَطيبٌ ومِنْبرُه ساعدٌ ... يُقلبُ عينيه مثل الضرَمْ
له مِنسرٌ عاقدٌ ما يصيدُ ... وعشرون فى طاقِ لو هجمْ
وفى كلِّ عضوٍ له أعينٌ ... تُراصدُ إنْ هوَ بالصيد هَمْ
يُقرِّط مخلبُه أذنَه ... ويَسبقُ ناظرَه حيثُ أمْ

تلك هى أوصاف عقاب الجو ، وهى أوصاف الأستاذ العقاد ، أو هى من أوصافه ، فهو ليس خطيبا فحسب ، بل هو خطيب ، وكاتب ، وشاعر ، ومؤرخ ، ومؤلف ، وسياسى ، واجتماعى ، وشاب فى الشباب ، وشيخ فى الشيوخ . وهو مجمع عبقريات ، وروح عظيم فى نهضة الفكر الحديث . وقد جال فى الروحانيات والماديات وطاف بعقله عوالم الأرض ، وصعد بهمته إلى عوالم السماء . حتى كتب عن « الله » . واقتحم عالم السدود والقيود ، فهتك ما فيه من مخاز وعيوب ، وهاجم « الحكم المطلق » وحكامه ، وصارع هتلر وأيامه ، وكان متنبئاً بعيد النظر صادق النبوءة .

والعرب تصف العقاب بحدة البصر ، وتسميه « الكاسر » . وقد كنوه « أبا الدهر » و « أبا الحجاج » و « أبا حسام » و « أبا الهيثم » . وكان سعد زغلول يسمى الأستاذ العقاد « الكاتب الجبار » فقد كان ، ولايزال ، قويا فى حجته ونقاشه ، جباراً فى صراعه وهجومه . ليس له منسر واحد ، أومخلب واحد ، بل عشرات ومئات . لو هجم على فريسته ، فلا شىء يعصمها من الهول الهائل ، الذى يدك الرواسى ويحطم الحصون .. !!

* * *

ويضرب الناس المثل بالعقاب فى العزة والمنعة ، ويقولون : « أمنع من عقاب الجو » . وإذا شاء الأدباء أن يضربوا المثل فى عزة الأديب ومناعته ،

واحتفاظه بكرامته . قالوا : « أمنع من الأستاذ العقاد » ! فما عرف العقاد يوما أنه تملق بأدبه عظيما أو خطيراً ليظفر منه بمكانة أو جاه ، وقد كان الاستجداء بالشعر معروفا حتى أوائل القرن العشرين ، ولعله ما يزال ، فترفع عن ذلك كارها ، وحفظ للأدب مكانته السامية ومقامه الرفيع ... !

وقد قيل لبشار بن برد :

« لو خيرك الله أن تكون حيواناً ، فماذا تختار ؟ » .

فقال : أختار أن أكون عقابا ، لأنه يعيش فى قمم الجبال حيث لا يبلغه إنسان ، ولا ذو أربع ، وتحيد عنه كلاب الطير ، ولا يعانى صيد الجيف » !

ويفضل الأستاذ العقاد العزلة والسكنى بعيداً عن الناس ، ولا ينزل إلى الصغائر ولا يهوى ضياع الوقت فيما يضيعه الكثيرون ، وخير عنده أن يجلس إلى كتابة أو تأليف أو مطالعة ، من أن يقتل الوقت فى عبث المقاهى ، وتسلية النوادى ، وحفلات الكوكتيل والشاى ! . .

وهو مفكر منتج خصب الإنتاج يحتجز نفسه فى صومعته الأيام والأسابيع ولا يكاد يخرج إلا حين يضطره الخروج ، شأن العقبان ، وسباع الطيور !

* * *

والأستاذ العقاد كريم النفس ، رقيق العاطفة إلى درجة غريبة ، وقد مات صديقه (بيجو) فحزن عليه حزناً شديداً ورثاه رثاء تزهو به الكلاب على بنى الإنسان . رثاه بقصيدة عامرة الأبيات ، ورثاه بمقال مسهب بليغ جاء فيه :

« صور كثيرة بقيت فى خلدى من الإسكندرية كأنها صفحات مقسمة فى معارض الفن والحياة والتاريخ ، وستبقى ما قدر لها البقاء وسيكون من أبقاها وأولاها بالبقاء صورة واحدة لمخلوق ضعيف أليف . يعرف الوفاء ، ويحق له الوفاء . ذلك هو صديقى « بيجو » الذى فقدناه هناك ، وإنى لأدعوه « صديق » ولا أذكره باسم فصيلته التى ألصق بها الناس ما ألصقوا من سبة وهوان ، فإن الناس قد أثبتوا فى تاريخهم أنهم أجهل المخلوقات بصناعة التبجيل ، وأجهلها كذلك بصناعة التحقير » !

وقد قرأ العقاد كثيراً ، وألف كثيراً ، ودرس الحياة طويلا ، وكون له فيها فلسفة ضمنها كتابه « مجمع الأحياء » الذى وضعه منذ أربعين عاما بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم أعاد طبعه بعد الحرب العالمية الثانية وقد تناول فيه النضال بين الأهواء والمبادىء ، واستكناه وجه الحكمة . وأجرى حواره على لسان الحياة والطبيعة والإنسان والحيوان .

وقد عقد هذا المجمع فى الغابة فى قلب أفريقيا حيث الأشجار الباسقات ، وفيها من الأحياء مالا يوجد فى أعمر الحواضر عداده ، ولا تنتهى على طول الزمن أمداده ، كواسر صارخة ، وعصافير صادحة ، وهوام صافرة ، ووحوش زائرة ، ودواب زاحفة هادرة ، وقد صاح كل منهم بنغماته ، فتألف من لفظها المختلف موسيقى الطبيعة المبدعة وتناقشت وتجادلت فى فحوى الخير والشر والحياة والموت ، وكانت الكلمة فى النهاية للطبيعة ، والبقاء فيها لكواسر العقبان ! .

ويختلف الأستاذ عباس العقاد عن العقاب بأنه لا يرحل كثيراً ولا يسافر من قطر إلى قطر ، بل يطوف بفكره وقراءاته فى أرجاء العالم ، وكأنما رأى وسمع وعرف كل ما فيها ومن فيها . وهو ينقد بفكره النافذ ، ونظراته الثاقبة كل أمة من الأمم نقد عالم خبير . أما العقاب ، فهو سريع الطيران يفطر فى العراق ، ويتغدى فى اليمن ويتعشى فى مصر ، ويرحل كثيرا ، ولكنه لا يفقه شيئا أمن مور البلدان ، شأن بعض الناس ممن يرحلون ولا يفقهون . !

ويشارك الأستاذ العقاد العقبان فى طول العمر ، فقد جاوز السبعين بقليل . ولكنه منتج على الدوام فى شبابه وكهولته وفى حياته السبعينية .

إن هذه الحياة السبعينية — ولا جدال — حياة منتجة أيما إنتاج نافعة أيما نفع ، عامرة بالجهود العلمية والأدبية البارزة ، التى تفخر بها العربية ، ويعتز بها الشرق العربى ، بل يعتز بها العلم والأدب فى سائر الأقطار ، فقد بلغ الأستاذ العقاد بإنتاجه الثقافى ما جعله أحد العباقرة القلائل الذين تفخر

بهم الشعوب . وقد ارتفع بعبقريته فوق الماديات ، وفوق التقدير المحلى فى هذا الجيل إلى التقدير العالمى الخالد على مر الأجيال .

قد يقال عن العقاد إنه صارم فى طبعه ، حاد فى مزاجه كشأن العقبان ، ولكن ذلك ليس عيبا فى الرجل النابغ ، المعتد بنفسه ، الحريص على كرامته ، المرهف الحس والوجدان . وهو فى مجلسه بين الناس ، وفى عشيرته وبين أصدقائه كريم النفس ، لطيف المعشر ميال إلى البساطة والفكاهة .

اجتمعت معه ذات مرة فى ندوة أقامتها مجلة الهلال ، عن « الفكاهة وأثرها فى المجتمع » . وقد حضرها المرحوم نابغة التمثيل نجيب الريحانى ، والمرحوم الكاتب الاجتماعى محمد خطاب ، والأستاذ بديع خيرى ، والمرحوم عبد الحميد عبدالحق .. فكان عباس العقاد أعلمهم بالنادرة الطريفة ، وأطبعهم فى الفكاهة ، واسبقهم إلى رواية الطرائف المثيرة للضحك ، وإشاعة المرح فى المجلس .
وقد قلنا إنه لا يرحل كثيرا كالعقاب ، محب للانطواء والعزلة ، ويؤثر الإقامة فى مكانه ، راغب عن السفر والترحال . . حتى أنه لم يسافر شمالا إلى أبعد من الإسكندرية ودمياط وفلسطين ، ولم يرحل جنوبا إلى أبعدمن أسوان والخرطوم ، مع أنه كاتب وشاعر جمع الدنيا كلها فى دواوينه وكتبه .

والحقيقة أنه يميل إلى الاقتصاد فى الوقت الذى يصرفه بين الأفراد والجماهير توفيراً لساعات القراءة والتفكير والتأليف . . تلك الساعات التى يؤثرها على غيرها من ساعات الحياة الأخرى .

أما إيثاره الإقامة فى مكانه عن السفر والترحال والطواف فى العالم بجسده ، فقد استغنى عن ذلك بالطواف بفكره وعقله وقراءاته ، وهو يميل إلى التنقل والرحلة ولكن أى تنقل ، وأية رحلة ؟

إنه التنقل من فن إلى فن ، ومن علم إلى علم ، حتى كاد يستوعب كل « الفنون والعلوم » أما الرحلة ، فهى ليست الرحلة التى يقطع فيها القفار ، ويعبر الأنهار والبحار ، وإنما هى الرحلة فى داخل النفس والضمير ، وفى عالم التأمل والخيال . ومثله فى ذلك أبو العلاء المعرى الذى سمى « رهين المحبسين » لملازمته

داره ، وحبسه فى جسده ، ولكنه طاف العالم بأفكاره وتأملاته ، وشاء أن يرحل فى كتاب من كتبه رحلة نفسية ، وهو كتاب « رسالة الغفران » .. فلم يقنع بأقل من الرحلة إلى السماء ، بما فيها من نعيم وجحيم !

وكذلك جول فرن الكاتب الفرنسى الذى ساح فى جوف الأرض ، وفى أعماق البحار ، وفى أجواء السماء ، ورأى من المشاهد ما لم يره غيره من المكتشفين وأبطال الأسفار ، وقد ساح أيضاً فى عالم الغيب وشهد من المخترعات ما لم يخلق فى عهده ، وما حققه العلم الحديث فى هذه الأيام ، حتى قال عنه القائد العسكرى فال ليوتى : « إن الناس يعيشون اليوم أحلام جول فرن » !

* * *

وقد أحب الأستاذ العقاد فى صباه السياحة ، وشاقه أن يسيح فى البلاد ، وأن يقطع مشارق الأرض ومغاربها ، ولكنه ما لبث أن تبين أن هذا الحب عارض من عوارض الصبا التى تنزوى مع الزمن وراء غيرها من الميول المتمكنة فى طبيعته ، وما زالت تضعف وتضعف حتى تلاشت فى نفسه ، وصار على حد قوله لنا :

« لولا رياضة المشى التى تعودتها ، لما خطر لى أن أبرح المنزل أياما ، بل أسابيع . . ولذلك سبب منى ، وسبب من أحوال العصر الذى نعيش فيه . .

« فأما السبب الذى منى فبعضه يرجع إلى حب العزلة التى نشأت عليها ، وورثتها من أبوى ، وبعضها يرجع إلى شعورى بالقراءة التى تغنينى فإننى أشعر بأننى لا أقرأ سطوراً على ورق ، ولكنى أحيا فى تلك الأوراق بين أحياء . .

« وأما السبب الذى من العصر ، فهو أنه أول عصر يسر للإنسان وهو جالس فى مكانه أن يدرك بالبصر والسمع بلاداً واسعة على مدى آلاف الفراسخ . فالصحف تنقل إلينا أخبارها ، والإذاعة تسمعنا أصواتها وأصداءها ، والتليفزيون والصور المتحركة تستدنى للآذان كما تستدنى للعيون كل ما هو

خليق منها بمشاهدته أو الاستماع إليه . . وعلم تخطيط البلدان قد يعرفك ما يجهله المقيمون فيها . . ومراجع التاريخ قد تملأ نفسك بما يملأ عصورها من الأحداث والذكريات ، ونقوش الفنانين وأغانى الشعراء والموسيقيين تهيء لك أن تنفذ إلى روحها ، وتمتزج بعبقريتها ،وتحياها على أحسن أنماطها فى الحياة !

« نعم إن الإحساس بالمكان وأنت فيه غير الإحساس به وأنت على مسافة منه ، ولكن هل نستطيع أن نقول إن الإحساس بالمكان القريب يغنى عن الإحساس البعيد ؟ ! . . أوهل نستطيع أن نقول إن الإحساس من الداخل يغنى عن الإحساس من الخارج ، أو أن الإحساس بالعين وبالأذن يغنى عن الإحساس بالوعى والخيال ؟

« هما إحساسان — ولاشك — لازمان !

« والخير كل الخير أن تجمع بينهما ، وأن تكون رحلتك الخارجية مقرونة برحلتك الداخلية ، فإن تعذر الخير كل الخير . فالخير بعض الخير ، وخير من لاشيء . . . !

« ولست أزين لأحد أن يفضل طريقتى فى السياحة على طريقته ، ولكننى أنا فى الواقع لن أنقطع عن السياحة فى العالم . . رحلة بغير ارتحال ، وطوافا بغير تطواف .. » !

والواقع أن رجال الفكر ، ونوابغ العلم منذ أقدم العصور ، يسبقون الرحالين إلى أقصى الأرض وأعلى الفضاء يجودون من إلهامهم بأكثر مما يأخذون ، ويتصلون بالكون اتصالا فكريا ونفسيا وروحيا ، طالما كانت له آثاره فيما شهده الإنسان فى حضارته القديمة والحديثة من ديانات ومدنيات وعلوم وآداب .

وكان طوافهم الفكرى ، وتأملهم العقلى ، وفيضهم الروحى وأبحاثهم فى سر الحياة وعجائب الخلق — كان ذلك كله حافزاً للمكتشفين إلى ما قاموا به من اكتشافات ، وللمخترعين إلى ما وصلوا إليه من اختراعات ومبتدعات .

ولقد طاف رجال العلم حول الأرض بأفكارهم ، وصعدوا إلى أجرام السماء وهم لم يبرحوا مكانهم . قبل أن يطوف رواد القارات ، ومكتشفو القطبين ، ويشهدوا ما فيها من مجاهل ، وقبل أن يصعد الصاروخ الروسى إلى الفضاء ويدور جاجارين وتيتوف فى الفضاء ، ويتبعهم نيكولاييف وبوبوفتش على بعد آلاف الأميال . بل إن هؤلاء المكتشفين والطوافين — على مالهم من فضل — كانوا بمثابة أجهزة حية حققت تلك الأفكار والأحلام التى أفنى فيها العلماء كثيراً من الوقت والبحث والتفكير .

* * *

وقد ألف الأستاذ العقاد عشرات الكتب التى يقرؤها آلاف القراء فى أدنى الأقطار وأقصاها ، وتناول الكثير من معالمها وسكانها دون أن يشهد هذه الأقطار ، بل إنه ألف عدة دراسات عن عظماء وأبطال ابلاد قاصية لم يرحل مرة إليها ، فكان فيما ألفه عن هؤلاء أخبر بهم من أبناء بلادهم ، وأعلم منهم بأبطالهم وعظمائهم . . وتلك هى عبقرية الفكر ، والقدرة النابغة التى تستحق أبلغ الإعجاب والتقدير » !

ويؤثر الأستاذ الكبير فيما يقرأ ويكتب كتب التراجم ، والتاريخ الطبيعى ، وفلسفة الأديان ، وكتب الشعر . ولهذا كان نصف ما ألفه من المؤلفات فى تراجم طائفة من أعلام الشرق والغرب . وله من دواوين الشعر عشرة دواوين ، ومن كتب الدين فوق العشرين — هذا إلى ماله من كتب الفن والأدب والفلسفة ، والمذاهب الاجتماعية ، وحياة الإنسان .

ولا ريب أن فيما كتبه العقاد من هذه الأنواع المتباينة علاقة متينة وإن كانت تفترق فى موضوعها فى الظاهر ، لأنها ترجع إلى توسيع أفق الحياة أمام الإنسان .

فكتب الدين ، وفلسفته تبين إلى أى حد تمتد الحياة قبل الولادة وبعد الموت !

وكتب التاريخ الطبيعى تبحث فى أشكال الحياة المختلفة ، وأنواعها المتعددة .

وتراجم العظماء معرض لأصناف عالية من الحياة القوية البارزة !

والشعر هو ترجمان العواطف الإنسانية .

فهذا الأديب العالم المفكر لا يتناول من الكتب تأليفا أو قراءة إلا ماله مساس بسر الحياة . . وعنده أن الحياة أعم من الكون وأن ما يرى جامداً من هذه الأكوان أو مجردا من الحياة إن هو إلا أداة لإظهار الحياة فى لون من الألوان ، أو قوة من القوى . والحياة خلق دائم أزلى لا نهاية له .

فإذا كنا نعرف سر الله عرفنا سر الحياة . . . !

وقد عجز البشر عن معرفة هذا السر فى حقيقته ، وإن عرفناه فى ظواهره وآثاره . ولكننا مطالبون بأن نحفظ لأنفسنا فى هذا المحيط اللانهائى ، أوسع دائرة يمتد إليها شعورنا وإدراكنا .

والكتب هى وسائل الوصول إلى هذه الغاية ، وهى النوافذ التى تطل على حقائق الحياة ، ونستجلى منها هذه الحقائق ونعيش فيها حياة غنية بالمتعة الروحية ، سعيدة بالنظر والتفكير . . . !

- ٣ -

قيثارة الله

أم كلثوم

قيثارة الله

هيَ تُزجي من الغناء جديداً ومن السحر والجمال تليدا
ذاتُ لحن يُشجي العميدَ المعنىً ويعيدُ الخليَّ صبا عميدا
تارة تبعثُ النشيد غناء وتحيلُ الغناءَ طوراً نشيدا
في فنون تسبي القلوبَ وتُهدى كلَّ يوم من الأغاني فريدا
آهةٌ بعد آهة بعد أخرى تُرسل الدمعَ في الخدود نضيدا
ورخيمٌ من الأغنِّ عجيب يجعل البائسَ الشقيَّ سعيدا
هي بين الأنام قيثارةُ اللـه، ونُعمى قد صاغها تغريدا

تلك هي السيدة « أم كلثوم » كما أراها شعراً ، وكما تنثر أنغامها في النفوس نثرا .. فهي هبة الله إلى هذا الجيل ، وقيثارته في الفن الجميل . أودع فيها من النغم مانعلم ومالا نعلم ، وجعلها آية الألحان في هذا الزمان ، وهدية السماء إلى العواطف والوجدان !

فقد خلق الله الكون ، ومنحه من لحنه الخالد ما تطرب به نفوس البشر ، وتهتف له الطيور على الشجر ، وأسبغ عليه من جماله العظيم ما تنعم به القلوب والأبصار ، وما تبتسم به الرياض والأزهار ، وتسبح به الكائنات بالليل والنهار ويستمد منه الغناء حلاوته وألحانه، ويستوحي منه جماله وأنغامه ، ويجد فيه كل حي اللذة والعزاء والسلوى !

وقد جعل الله « أم كلثوم » لحناً من ألحانه ، وآية من آيات قدرته وإحسانه وخصها بصوت ليس ككل الأصوات ، ونغم ليس ككل الأنغام وصنعها قيثارة من بديع صنعه ، وعجيب إبداعه . وهي ليست في النوابغ والعباقرة ، ولكنها من عجائب الفن الباهرة . ومثلها كهذا البلبل القيثاري[1] النادر المثال الذي

---

(١) البلبل القيثاري ، سمي كذلك لأن ذيله على شكل قيثارة

لا دخل لعبقرية و نبوغ فيما وهب من شكل وجمال . أو كمثل الزهرة تنفح الجو بعبيرها ، ويشع منها النور والعطر والابتسام .

ولو أن « أم كلثوم » خلقت خلقا آخر لما كانت إلا بلبلا يصدح فوق الأغصان ، بأعذب الألحان ، أو زهرة مبتسمة بين الرياض والأشجار ، أو نغما حلوا يهزج به النسيم فوق الجداول والأنهار .

ولقد كانت فى نشأتها الأولى كثيرة النشاط ، كثيرة الحركة كالبلبل القبثارى ينتقل من غصن إلى غصن ، ومن شجرة إلى أخرى فى مرح وبهجة وقد مالت إلى اللطف والظرف والفكاهة منذ الصبا ولكن فى وقار واحتشام وفى أدب وانسجام ، وأحبت ساجعات الطيور وعاشت معها بين الدساكر والزهور . وهى بالطير أشبه فى خفته وحلاوته ، وفى رقته وبراءته ، وفى عشقه للألوان الزهراء ، وهيامه بالجو الأزرق !

وهى تغنى للغناء ، كما تشاء وحين تشاء ، لا كما يشاء الآخرون ، أو كما يحبون ويفرضون ، فليس لأحد أن يفرض على « أم كلثوم » لحنا من الألحان مهما كان الزمان والمكان .. وإذا غنت شعرت بجو جميل من النغم يحيط بها من كل جانب ، لا تدرى من أين يفيض حين تغنى أية أغنية من الأغنيات . بل يوحى إلى صوتها نغم عجيب ينسجم مع التلحين الرتيب ، ويرقى به رقياً إلى الطبقات العليا فيسرى فى النفوس والأرواح إلى الأعماق .

***

ولقد أحبت العصافير وآثرتها بالرقة والحنان ، وبالعطف والهيام . وكانت أول قصيدة غنتها فى حياتها الفنية ، قصيدة « عصفورة » المرحوم مصطفى صادق الرافعى التى مطلعها :

عصافيرُ تحسبنَ القلوبَ من الحبِّ	فمَنْ لى بها عصفورةً لقطتْ قلبى
وطارت فلما خافت العين فوتَها	أذابَتْ لها حبا من اللؤلؤ الرطب
فياليتنى طيرٌ أجاور عُشها	فيوحشها بُعدى ويؤنسها قُربى
وياليتها قد عششت فى جَوانبى	تُغرِّد فى جنب وتمرحُ فى جنب
ألا ياعصافير الربى قد عشقتها	فهبى أعلمك الهوى والبكا هبى

أعلمكِ النوحَ الذى لو سمعتهِ رثيت لأهل الحب من شغفِ الحبّ

والسيدة أم كلثوم تحب الفن ، ولا تقدس إلا الفن ، ولا تعبد إلا خالق الفن ، ولا تستجيب إلا لنداء الفن ، ونداء الوطن ، ولا تتقيد فى ذلك بعهد من العهود ولا بزمن محدود ، لأنها لا تعشق إلا الجمال ، ولا تنبع أنغامها العذبة إلا من معين الحق والواجب والجمال .

وقد رحلت من القرى إلى المدن ، وانتقلت من البداوة إلى الحضارة ، وغردت فى الرياض والقصور الأغاريد ، كما أنشدت فى الريف والحقول الأناشيد : وبدأت مع « الوالد » تغنى فى المواسم والموالد . وسجعت فيها بالتواشيح والقصائد ، وكان أول توشيح غنته فأطربت ، وصدحت به فأجادت وأحسنت ، قول القائل :

مولاى كتبتَ رحمةَ النا سِ عليكَ فضلا وكرمْ
فالمرجعُ والمآلُ والكلُّ إليك عُربٌ وعجمْ

وهى لهذا العهد تمتاز فى إنشاد القصائد وتأتى فيها بالعجائب ، وتسمو بها عن أغنياتها الشعبية ، وإن كانت فى كلتيهما تبلغ فى الطرب والتطريب مالا يبلغه غيرها فى هذا الزمان .

* * *

« وأم كلثوم » فى غنائها محافظة ومتحررة . فهى محافظة حين تنشد المدائح النبوية والقصائد العربية الفصحى . ومتحررة حين تغنى الأغانى الشعبية والطقاطيق العامية . وقد أتيح لها فى مبدأ حياتها الفنية أن أخذت الفن من أصوله على العلامة « الشيخ أبى العلاء » ، وكان هذا الشيخ فنانا كبيراً ، وموسيقيا نابغا ، وأستاذاً غزير العلم بفن الغناء أتم ما بدأه الأولون ، وحافظ على التقاليد الموسيقية العتيدة التى وضعها الأساتذة القدماء .

وقد كانت أم كلثوم ولعلها ما زالت ـــ محافظة فى اختيارها لجانب كبير من قصائدها وأناشيدها من اللغة العربية الفصحى التى يحبها عشاق الفن الرفيع

وتستهوى الجماهير برقتها وعذوبتها منـــذ كانت تغنى من شعر كمال الدين ابن النبيه المصرى :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

أو حين كانت تغنى لأبى فراس الحمدانى :

أراك عصىّ الدمع شيمتكُ الصبرُ أما للهوى نهىٌ عليك ولا أمر

بلى أنا مشتاق وعندى لوعةٌ ولـكن مثلى لا يذاعُ له سرُّ

إذا الليل أضوانى بسطت يد الهوى وأذللتُ دمعاً من خلائقه الـكبرُ

معللتى بالوعد ، والموت دونه إذا مت ظمآناً فلا نزَلَ القطرُ

وهى محافظة على قوميتها العربية لا تغنى إلا للعرب ، أو لسيد العرب محمد (ص) أو فى الأحداث العربية الـكبرى . وتكاد تـكون مجموعة أغانيها وأناشيدها ، وما غنت من قصائد سجلا من سجلات التاريخ العربى حين يسجل تاريخنا الحديث . وقد لبست العقال والرداء العربيين أول ما ظهرت أمام الجماهير وعاشت بهما وقتا من الزمان .

* * *

وهى مجددة حين تحررت من تخت والدها ، وما كانت تنشده من التواشيح القديمة ، فأصبحت تغنى وحدها الأغانى الحديثة بصوتها العذب ، وبلا تخت ، تحدوها الموسيقى أو تحدو هى الموسيقى فى جمال ووقار ، وكمال سمت وحسن هندام ولم تخرج بالغناء عن أصوله الفنية ، بل لونته بلون العصر الذى تعيش فيه والذى سوف تعيش فيه الأجيال القادمة ، فلم تعبث بالغناء كما يعبث العابثون ، أو تدخل فيه ماليس منه باسم التمدن والتجديد ، أو تنحرف بشرقيته وقوميته إلى الغرب ومراقصه وحاناته ، أو تجعله لاشرقيا ولاغربيا ، أو تنزل به إلى الخلاعة والمجون أو تشغل الناس فيه بما يقعدها من أحوال وشئون ، أو تهبط به إلى التجارة ، مؤثرة المال على فن الروح والجمال .. بل عاشت لفن الغناء تخدمه فى أغراضه المثلى وأهدافه السامية .

ولهذا سوف تخلد أم كلثوم خلودين : خلوداً فى جمال الغناء ، وخلودا فى حياتها المثالية الرفيعة .

ولقد غنت لأحمد رامى ولمحمود بيرم التونسى أحسن ما ألفا من أغنيات وأناشيد ، واختارت من شعر أحمد شوقى وحافظ ابراهيم وعلى الجارم ومحمود حسن اسماعيل ومحمد الأسمر أجمل القصائد الوطنية ، وأرق المدائح النبوية وأحلى الغزل والنسيب ، فأحسنت الاختيار مما يشيد بفضل العروبة والإسلام ، ويسمو بالعواطف والوجدان ، ويصل بالسامعين إلى الروح الأعلى الذى جعل منها آية العصر ، وقيثارة الله .

***

ولقد وهبت ذوقا سليما ، وحسا دقيقا فيما تقرأ وتسمع ، وفيما تختار من الأغانى والأشعار ، وآثرت فيها رعاية الدين والخلق الكريم . ولقد غنت من رباعيات الخيام ، فأبدلت بعض ألفاظها بألفاظ أخرى ولم تشوه من نظمها شيئاً وهى ترى أن فلسفة الخيام ليست فلسفة مجون ، بل هى فلسفة عالم متصوف عظيم يرى الكون وحدة من وحدانية الله ، ويرى الكائنات لمحات من روح الله .

وهنا سؤال :

هل أم كلثوم صاحبة مدرسة فى فن الغناء ؟

ورأيى أنه إذا كان للبلبل المغرد مدرسة تؤخذ عنه ، كان لأم كلثوم مدرسة ذات تلاميذ وفصول . . إن صوت أم كلثوم ، كما قلت هبة إلهية ، وقيثارة سماوية ، لاتعطى لأحد ، ولايمكنها أن تعطيها هى لأحد ، ولقد فشلت الكثيرات ممن أردن تقليدها ، والجلوس على عرش من عروشها ، لأن صوتها جزء منها لاينفصل عنها وليس هو صوتا له قواعد يتعلمها المتعلمون . فأنغامه إلهام ، وألحانه عطاء من معطى هذه الألحان ، قد لا تعرفه هى فى كثير من الأحيان فهو ينصب فى كل أغنية من أغنياتها انصبابا بألوان تختلف عما سبقها من ألوان .

وهذا هو السر فى أن صوتها أحلى من الموسيقى ، وانغامها أسمى من أنغام الأوتار .

ولعلها المطربة الوحيدة فى عصرنا الحديث التى يموت صوت الموسيقى ويكاد يتلاشى حين يحيا بحلاوته صوتها البديع ... !

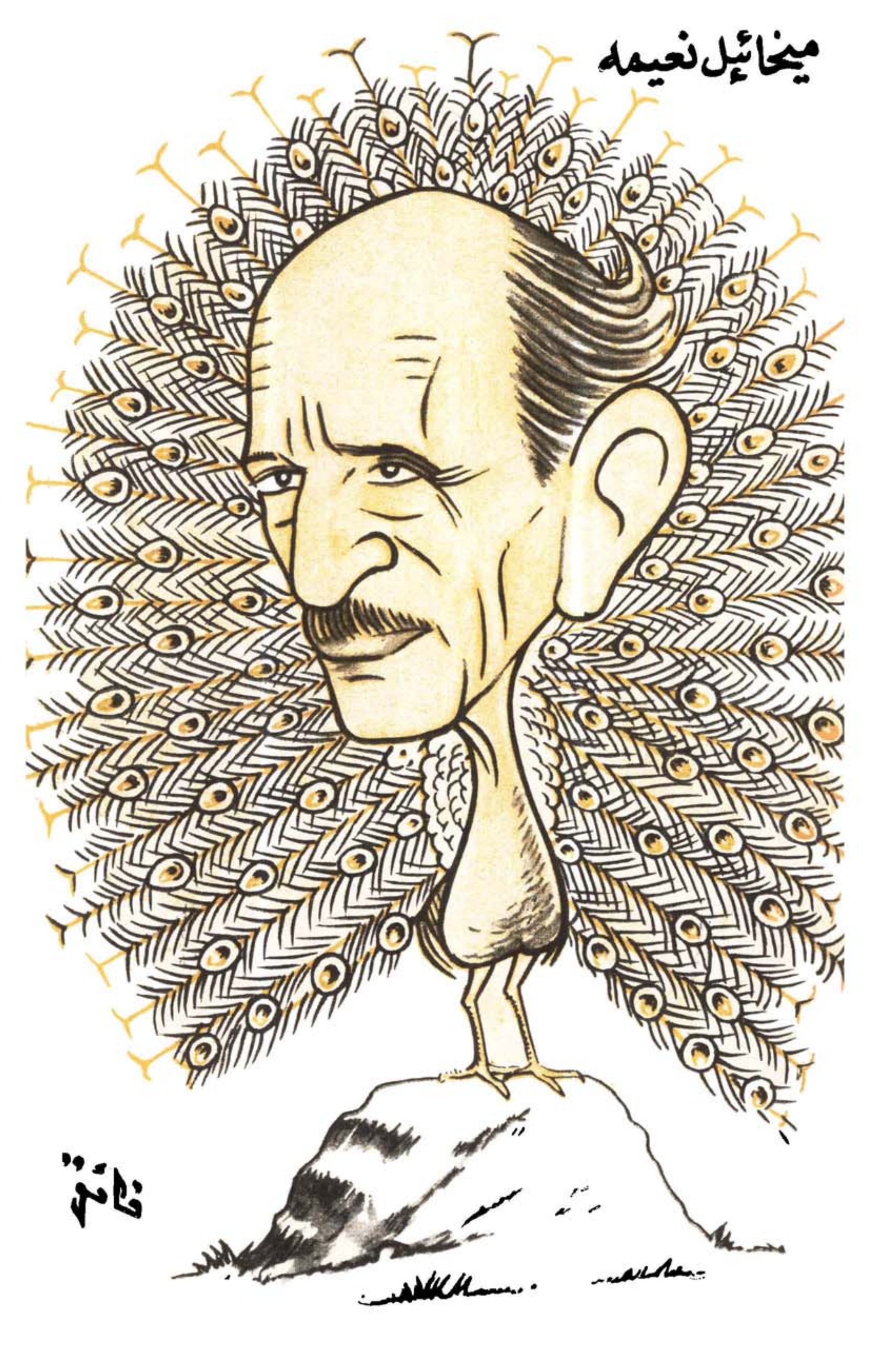
ولعلها المطربة الوحيدة أيضاً التى نستطيع أن نرجح أنه لم يأت فى تاريخ الموسيقى العربية صوت جميل يشبه صوتها فى معدنه وسلامته وخصب أنغامه إذا قارناه بما وصفه المؤرخون من أصوات المطربين والمطربات فى العهود الذهبية للموسيقى والغناء فى الحجاز والشام والعراق والأندلس .

وسبحان خالق الألحان ، وواهب الغناء وحسن البيان . والذى يقول للشىء كن فيكون ، ولقيثارته الإلهية أن تغنى . . فتكون « أم كلثوم » . . !

— ٤ —

طاووس الأدب

ميخائيل نعيمة


ميخائيل نعيمه
فاتح

طاووس الأدب

مُتوَّجُ المفرقِ إلا يكنْ كسرى بن ساسانَ يكنْ قيصرا
فى كلِّ عضوٍ ذهبٌ مُفرغٌ فى سُندسٍ من ريشهِ أخضرا
نُزهةُ من أبصرَ ، فى طيِّها عبرةُ من فكَّر واستبصرا
تبارَكَ الخالقُ فى كلِّ ما أبدعهُ منهُ وما صوَّرا

ذلك ما وصف به الطاووس أميةُ بن عبد العزيز الأندلسى . . !

وقد أشار فيه إلى ثلاث صفات امتاز بها هذا الطائر الجميل عن غيره من الطيور : فهو رائع المنظر ، رفيع المكانة ، متوج كالملوك ، إذا فاته أن يكون كسرى فى عصره ، فلن يفوته أن يكون قيصر فى أبهته وموكب نصره . يخطر فى وقار وازدهاء ، وكأنما تخطر حديقة غناء ، قد كساها الربيع من جماله ما يجتذب الأنظار ، ويسحر الألباب والأفكار ، فتبارك الفنان الأكبر ، الذى أبدع وصور ، وجعل من آيات فنه فى بديع خلقه عبرة لمن فكر واستبصر . . !

نشأ هذا الطائر الساحر فى هذا الجو الفنى الباهر ، واكتسى بهذا الثوب المنسجم الفاتن ، مؤتلف الأشكال والألوان . . ما بين أصفر ذهبى ، وأحمر ياقوتى ، وأخضر سندسى ، وأسود مسكى وأبيض زهرى ، وقد استعار من الأصيل شعاعه ، ومن هلال الليل بهاءه . لايخلع هذا الثوب فى فصل من فصول الزمان إلا فى فصل الخريف ، فيلقى ريشه ، كما يلقى الشجر أوراقه . وإذا بدأت الأشجار تكتسى بالجديد من الورق والنوار ، بدأ الطاووس فاكتسى ريشاً جديداً يزدهى بجماله ، ويسرُّ به الناظرين ، ويفتن به أنثاه فتسعى هى جادة إليه وتكاد تركع بين يديه .. طائر جميل مجدد محبوب ، يسير مع ناموس الحياة ، ونشاط الطبيعة فى التحول من حال إلى حال ، ومن مرحلة إلى مرحلة ، ومن يبدر

إلى بدر ، ومن قديم إلى جديد . ومن حب إلى حب . ولهذا صار فى حياته المتجددة جذاب الألوان ، غنياً بالفتنة والافتتان . . !

وهو فى جوه الفنى ، وبيئته الرفيعة طائر أسيوى فنان ، يعشق سكنى الأشجار وأعالى الأغصان ، ولا يعيش إلا بين الرياض والينابيع ، يؤثر الهدوء والعزلة عن الضجة والزحام . ويهرب من التجمهر والجماهير ، وينأى عن ثرثرة الأفراد والجماعات . ويبعد عن الناس ، وإن كان قريباً إلى قلوبهم وأفكارهم يسمعون عنه أكثر مما يرونه ويقرءون من أوصافه أكثر مما يعرفونه وينظرون من صوره أكثر مما شاهدوه . فإذا شاءوا أن يروه رأى العين ، فليذهبوا إلى أعاليه وأوطانه ، وليصعدوا إلى تلك الجبال الباسقة اليانعة ، وإلى تلك الحدائق المزدانة النامية فوق سطح السحاب .

وكذلك طاووس الأدب ميخائيل نعيمة فنان الشخروب ، وساكن حدائق بسكنتا[1] من جبل صنين بلبنان . فقد نشأ فى أحضان الطبيعة ، وبين فنونها الزاهرة ، وأضوائها الزاهية ، وابتسام قممها البيضاء ، وعظمة جبالها الشامخة ، وأحيط بالكثير من ألوانها المختلفة الأشكال ، المؤتلفة الفن والجمال ، وتعلم ألوانا من علم الشرق والغرب ، ومر بألوان من التجارب صبيا ، وفتى ، وشابا ، وكهلا . . وعاش بين الصخور والينابيع ، وبين الأشجار والأطيار ، وبين الخصب والجدب . ومارس شدة الأيام ورخاءها ، وذاق بخلها وسخاءها ، وجرب الغربة والاغتراب ، وآلام الحرمان من الوطن والأهل والأصحاب . وأقام فى الكهوف والأغوار ، ونشط إلى الرحلة والأسفار . وعشق حياة الفنون والعرفان ، وهاجر من أهلها إلى أقاصى البلدان . وتثقف بألوان من الثقافات والمعارف وأخذ من الماضى للحاضر ، ومن الحاضر للمستقبل ، وتجدد وجدد ، فخلع ريشه القديم ، واستبدل به ريشاً جديداً . . ولكن على جسد عربى أصيل ، وعلى أساس وطنى سليم .

فقد جدد ميخائيل نعيمة فى الأدب فجاء بثروة جديدة إلى ثروته القديمة ،

---

(١) بسكنتا هى قرية فى أعلى جبل صنين بلبنان يسكنها الأستاذ ميخائيل نعيمة :

وزاد اللغة العربية مجداً على مجد ، وجمالا على جمال ، دون أن يهدم البناء أو يشوه الأركان ، بل زاد فى البناء طبقة على طبقات ، وخلوداً على خلود . . !

ولقد عاش فى بسكنتنا ، ثم فى الناصرة ، ثم فى روسيا وأمريكا ثم عاد إلى لبنان ، ومرت به شئون وشجون ، وأحداث وتجارب ، ومر هو بها كما يمر النابغة الفنان ، فلونها بألوان فنه ، واستقبلها بعبقريته ، وشيعها بخواطره ونفثات قلمه . وسجل كل ذلك فى مؤلفاته وقصائده ، وفى قصصه « ومراحله »[1] ، بفكر ثابت ، ونظرة فاحصة ، ورأى فلسفى حكيم ، فكان للأدب العربى واللغة العربية منها ثروة نفيسة . !

* * *

نظر ميخائيل نعيمه وفكر فى الكون والكائنات ، وفى الأرض والسماء ، وفى البحر والإنسان والأحياء ، وحياة الناس وحياة المجتمع ، وجعل كل ذلك موضوع فنه وأدبه ، ومدار نظره وفكره ، منذ سافر إلى روسيا سنة ١٩٠٦ .. حتى إذا عاد منها بعد خمس سنوات إلى شواهق الشخروب جلس يحاسب نفسه على فترة مضت من عمره فى تلك البلاد ، لقد كانت فترة غليان فكرى وثوران عاطفى ، وامتداد روحى واجتناء عالمى وأدبى — كانت فترة دقيقة عميقة ، فتحت فكره ووجدانه على آفاق جديدة ، وأثارت فى نفسه حب التجديد والتطور فى الفن والحياة الفكرية فى بلاد العروبة . فجعل يثور على ما حوله من صور أدبية تقوم على السطحية والنفاق والتزويق !

ولم يطل حسابه لنفسه ، وتأملاته فى الخالق والخلق ، وفى الوجـــود والكون فى ظل شوامخ الشخروب بلبنان حيث السنونو والخطاف فى غفلة عن كل شىء إلا عن أوكارها العجيبة المعلقة بأطناف تلك الشواهق . فإنه نفض عن نفسه مؤقتا غبار هذه الأفكار ، وسافر مع شقيقه إلى أمريكا . . لعله يصيب علما فوق علمه ، ويجد فيه أجوبة لأسئلته الكثيرة عن الوجود والإنسان . وعن الكواكب وما عليها من كائنات قد تكون أرقى من الإنسان وأسعد من الإنسان .. !

---

(١) إشارة إلى كتابة الأخير « سبعون » الذى دون فيه مراحل حياته

عاش ثلاثين عاما فى القرية شاعراً مجدداً ، وكاتباً مجدداً ، ومؤلفا مجدداً .
وكان فى الصف الأول من الرعيل الأول فى نهضة الأدب العربى الحديث !

ولقد مرت بالأديب سنوات عجاف فى أمريكا ، ولكنها كانت من ناحية إنتاجه الأدبى ، سنوات سمانا ، بما كتب ونظم ، وبما ألف ونشر من مقالات ومؤلفات تتسم بالجدة والقوة . !

* * *

وقد كان من حظ طاووس الأدب أن يشترك فى الحرب العالمية الأولى ، فانخرط فى الجيش الأمريكى الذى عسكر فى فرنسا ، ولكنه لم يكن فى هذه الحرب طائرا جارحاً ، ولا حيوانا متوحشاً ، وإن حمل السيف والمدفع . !

وما كادت تنتهى تلك الحرب حتى التحق وهو جندى بجامعة رين(Rennes) فبقى فيها إلى أن عاد إلى نيويورك وكتب فيما كتب عن هذه الحرب يقول :

« اشهد ياليل ، اشهدى يانجوم أن الإنسان أحط من الحيوان . . .

« إن الذى يزهى بعقله يغدو فى الحرب بلا عقل ، فهو يشوه الصحيح ، ثم يعود فيحاول تصحيح ما شوه ، وهو يقتل الحى ليعود فيندب الحى ، ثم يدمر ما بناه ، ليعود فيرمم مادمره .

« ها هنا .. ما قيمة المحبة ؟ .. لا شىء .. ما قيمة الحق ؟ .. لا شىء ما قيمة العدل ؟ . . لا شىء . . ما قيمة الروح ؟ .. لا شىء . ما قيمة الله ؟ . . لا شىء .. ها هنا كل القيمة للقوة والمادة .. ! لماذا ؟ لماذا ..؟ وإلى متى هذا الجنون ؟ » .

وقد صدق الفيلسوف ، فإن الحرب جنون والناس فيها مجانين ، ولكنه جنون يبرره رجال السياسة بمختلف المبررات لأنهم عقلاء .. بل عقلاء المجانين ومجانين العقلاء . . !

* * *

عاش ما عاش طاووس الأدب فى أمريكا ، ثم بعثه الحنين إلى العودة إلى منزله الأول ، وهو يتمثل بقول أبى تمام .

كم منزلٍ فى الأرض يقطنه الفتى وحنينه أبداً لأول منزلِ

عاد الطاووس إلى موطنه بآسيا ، بعدما طار وحلق فى روسيا وفرنسا وأمريكا . . عاد وألقى عصا التسيار فى بسكنتا ، وأوى إلى الشخروب وصخوره وأنس إلى أشجاره وأطياره . هزه الشوق إلى تلك التلال والجبال المزدانة بأضواء الطبيعة ، وما فيها من فتنة وجمال ، وهو يناجيها حين رآها من مرفأ بيروت وقبل أن يحتضنها بسواعده وجوانحه — وكان قد وصل فى الفجر فيقول :

« لله ما أروع هذه الغلالة الشفافة التى لف بها الفجر تلك التلال ، فهى هنا بلون اللؤلؤ ، وهناك بلون البنفسج ، وهنالك بلون اللجين . وأروع منها تلك التلال الملتفة بها وقد تداخل بعضها فى بعض ، ثم راحت تتقاعس وتتمطى حتى بلغت نقطة بدت عندها ، كما لو أن السماء قد اتكأت عليها . تلك النقطة هى قمة صنين . . صنين متكأ السماء إنه أمامى ! .

« عيناى تقفزان من وجهى ، وقلبى يكاد يطير من بين ضلوعى . إنى أود لو أدرك تلك القمة الحبيبة ، قبل أن تدركها الشمس ، فأتبرك بلمس خمارها الأبيض ، وأفتح صدرى لأنفاسها المثلوجة المنعشة ، وأطل من فوقها على الشخروب وما فيه ومن فيه » ... ؟؟!

هذا الشوق الكبير ، والحنين الملتهب إلى الوطن ، وإلى الديار ومن سكن الديار ليس غريبا على العربى الأصيل ، فقد طالما تغنى العرب بحب الديار ، حتى بلغوا فيه ما لم تبلغه أمة من الأمم . ولقد كانت عودة الأديب إلى وطنه العربى خيراً وبركة على العرب ، وقد أهدى إليهم من ثروته الفنية والفكرية ما يعتزون به ويعتز به الأدب الحديث .

* * *

وإذا كان طاووس الطير قد عرف بالزهو والتيه ، فإن طاووس الأدب

قد عاد وفى نفسه وخلقه من القيم الأخلاقية والاجتماعية ما يسعد به كل أديب عربى ، ويفخر به الأدباء .

ذلك أن مكان الأديب ، ومكانة الإنسان فى رأى ميخائيل نعيمة هى كل لا يتجزأ من مكانة الأدب ، ومن مكانة الإنسانية التى فضلها الله على الحيوان ، وجعلها فى قيمتها السامية ، لا فضل فيها لإنسان على إنسان ، فالكل سواء فى الإنسانية ، ولا تفضيل إلا بمقدار ما لكل من الحظ فى المواهب والأخلاق والمثل العليا . أما الألقاب المزيفة ، وأما عبارة الأشخاص ، وأما الذل والمهانة ، فيجب أن ينأى عنه الإنسان ، فلا تيه ولا زهو من إنسان على إنسان ، ولا تفخيم من صغير لكبير ، ولا إذلال من كبير لصغير ، ولا امتهان ولا تحقير للعمل والفقر . . !

دعى للخطابة ذات مرة بعد عودته ، وكان من المدعوين للحفلة رئيس الجمهورية اللبنانية ، فجاء إليه الوفد الذى كان عليه أن يرافقه إلى مكان الاحتفال فقال له رئيسه باهتمام واحتشام :

ــ العادة عندنا يا أستاذ فى حضور رئيس الجمهورية أن يتوجه الخطيب إليه وحده دون باقى الناس ، فيبدأ كلامه بقوله .. يا صاحب الفخامة .

فقال له ميخائيل :

ــ إذن خير لكم أن تستغنوا عنى !

فذهل الرجل ومن معه لجوابه ؟ وقال متلعثما :

ــ أنت تمزح من غير شك يا أستاذ . . . !

فأجابه :

ــ بل أقول الجد كل الجد !

فقال الرجل :

ــ ألهذا الحد ؟ !

فأجاب :

ـ أجل لهذا الحد !

قال الرجل :

ـ وأى بأس عليك إذا أنت خاطبت رئيس الجمهورية بقولك يا صاحب الفخامة ؟

فأجاب ميخائيل :

ـ لست أريد أن أهين نفسى وأهينه وأهينكم وباقى السامعين وأنا لا أفهم ما هى الفخامة ؟ ! . ولا كيف يكون إنسان واحد ذا فخامة ، ولا نكون أنا وأنت وباقى الناس من ذوى فخامة . لعلك يا صاحبي أفخم فى نظرى من صاحب الفخامة . فكيف تريدنى أن أسخر لسانى بكلمات لا يقبلها عقلى ، ويمجها ذوقى ، وينفر منها فكرى ، وأنا رجل بين لسانه وعقله وذوقه وفكره ترابط وتجانس ومواثيق بألا يخدع الواحد الآخر » !

وانتهى الجدل بأن أذعن له الوفد ورئيسه ، ولم تكن « يا صاحب الفخامة » لها نصيب من خطبته . !

ولكن القوم فى هذا الشرق ـ كما قال ـ لا تزال تستهويهم النعوت الكاذبة ، والألقاب المزيفة كاستهواء الدمى للولد الصغير ، فهم من حيث نضجهم الروحى ما زالوا فى طور الطفولة ، حتى المثقفون منهم يستميتون فى الركض ، وراء وسام أو أية شارة أو لقب يتميزون به من عامة الناس ، وعامة الناس تتنافس فى تقديم إكبارها وإجلالها لتلك الشارات والألقاب ، وفى تحقير نفسها بالنسبه إلى حامليها .

وكذلك طاووس الأدب لا يرعى إلا كرامة الأدب ، وكرامة الإنسان ، ويرى أن الهدف فى التربية الأدبية والعلمية والاجتماعية هو سمو الروح ، واحترام النفس ، وأن يربأ بها الإنسان عن أن تكون مستعبدة للمال والجاه ، أو للأوسمة والالقاب . !

- ٥ -

مالك الحزين

أحمد أمين

أحمد أمين

كان المرحوم الدكتور أحمد أمين أستاذاً لى . . عرفته منذ الصبا الباكر هادئاً وديعاً جاداً فى الحياة ، همه العلم ، ولبانته التحصيل وسعة المعرفة ، ولذته الجد فى تغذية النفس والفكر والوجدان . ولعلى لم أره يوماً مبتسما أو كالمبتسم ولا متفائلا ، أو كالمتفائل ، ولا متشبباً أو كالمتشبب . وكان وقتئذ فى ربيع الشباب ، وزهرة العمر ، والعيش رغد ، والحياة خضراء ، والصحة وافرة ، والدنيا ضاحكة ، مستبشرة . . !

وكنا نحبه لفضله وأدبه ، ونعجب به لوفرة علمه . ونميزه بالنبوغ بين قرنائه ، ونعرفه بالزهد والوقار بين أنداده . وكان فى زهده ووقاره أشبه بالعازف عن الدنيا ، الكاره لمسرانها ، المستأنس بآلامها وأحزانها ، حتى عرف بيننا — وكان قبل ذلك وهو طالب بمدرسة القضاء معروفاً بهذا اللقب — « مالك الحزين » !

وقد تربى فى بيت علم وفضل ودين . وكان والده من شيوخ الأزهر ، وشاء القدر ان يعانى هذا البيت الأحزان مثنى وثلاث ، وأن يستقبل أحمد أمين الحزن قبل أن يولد ، ويدب فى دمائه الاكتئاب وهو جنين . فقد كانت له أخت فى الثانية عشرة من عمرها قامت تعد القهوة للضيوف ، فهبت النار فيها واشتعل شعرها وجسمها ، وحاولت أن تنقذ نفسها فلم تنجح ، فصرخت ولكن لم يدركوها إلا وهى شعلة من نار . وكان ذلك وهو جنين فى بطن أمه ، فتغذى من نفس حزينة ودم حزين . !

وكان له أخ فى السادسة عشرة من عمره يدرس معه فى مدرسة القضاء ، وكان نابهاً بين زملائه ، سباقاً بين إخوانه . فأصيب فى أجازة الصيف بالتيفود واشتد عليه المرض ، ولم يغن الطب ولا الدواء ، فلفظ نفسه الأخير ، فقامت قيامة الحزن فى بيته ، واستبدت به الأحزان .

وكانت ثالثة المصائب فى أخيه الأكبر ، بعد نحو سنة وبضعة أشهر من مصيبة ذلك البيت فى الأخ الأصغر . وكان شاباً صالحاً فى الخامسة والثلاثين ، صلى العشاء فى ليلة من ليالى رمضان ، وعاد إلى البيت يقرأ القرآن حتى السحور ثم تناول سحوره ، ونام كل من فى البيت . وعلى حين فجأة سمع الجميع صرخة قاموا لها مذعورين ! . وإذا هى صرخة زوجة ذلك الأخ ، وإذا هو ممدود على الأرض لا يعى ، وليس فيه إلا نفس يتردد ، فحملوه وقضوا آخر الليل فى رعب لا يوصف ، وبكاء لا ينقطع ، وحزن أهاج أحزانا . ثم قضى نحبه بعد عناء ويأس .

* * *

أحزان بعضها فوق بعض ، صادفها أحمد أمين فى صباه وشبابه ، ومنذ كان جنينا فى بطن أمه ، فأثرت تأثيراً عميقا فى نفسه ، ووضعت على عينيه منظاراً أسود ، لا يرى به فى الدنيا إلا الحزن والسواد ، ولا يستمع منها إلا إلى بكاء الباكين ، وإعوال المعولين ، فلا عجب إذا لقبه زملاؤه « مالك الحزين » !!

و « مالك الحزين » طير من طيور الماء ، ولكن أحمد أمين غرق فى الماء . فقد شاء الموت أن يداعبه مرة على الرغم من مداعباته الثقيلة الماضية ، وأن يمازحه مزاحاً خفيفا . فقد ذهب يوما ، وهو صبي ، مع والده إلى المسجد ليصلى ، وقصد والده إلى الميضأة ليتوضأ . وكانت وقتئذ حوضاً من ماء مساحته ثلاثة أمتار فى عمق متر يملأ من بئر بجواره . ولما توضأ والده وقام للصلاة ، بقى الصبي يطوف لاعباً على حافة الميضأة فزلقت قدمه ، وسقط فيها وغمره الماء ، فتنبه والده ، فأسرع وانتشله ، قبل أن يطغى على طفولته الماء . !

وقد كان قدماء المصريين يرمزون بمالك الحزين إلى العالم المفكر . وهو يطابق الدكتور احمد أمين فى رمزه وصفاته . وقد كان لهذه الصفات فضل كبير فى انصرافه عن اللهو ، وعكوفه على خدمة العلم والأدب ، فكان مدرساً كفئاً وقاضياً فاضلا ، ومؤلفاً ضليعاً ، وكاتبا كبيراً .

ومن الطريف أن نقول إن هناك من « الموالك » فى تاريخ العلم والأدب

من عرفوا بهذه الصفات : « فمالك بن نويره » كان أديباً تقياً من الصحابة ، و « مالك بن طوق » كان أديباً حكيما ، و « مالك بن أنس » كان أحد الأئمة الأربعة ، « ومالك بن دينار » كان عالما زاهداً كثير الورع .

* * *

وعلى الرغم من نشأة أحمد أمين الدينية ، وتربيته المحافظة الأولى . . فقد اشترك فى الدعوة إلى سفور المرأة ، ودافع عن رأى قاسم أمين . وكان يحرر سنة ١٩١٨ مقالا كل أسبوع فى جريدة السفور .

وقد عرف الحب العذرى وعاناه ، فقد أحب فى الخامسة عشرة « بنت الجيران » والتهبت عاطفته حباً لها وغراماً بها . وكل ما كان من وصال أن يجلسا معاً على كرسيين أمام دارها يتحدثان فى غير الغرام ، فلما وسوس الشيطان لأبيها حجبها عنه ، وشقى المحب الشاب بذلك زمناً من الأزمان ! .

وكذلك شاء القدر أن يكون « مالك الحزين » فى هدوئه وتفكيره وإيمانه ، وفى زهده وأحزانه ، وفى هواه وأحلامه ، تعوزه المباهج والمسرات ، وتضن عليه الغبطة والضحكات ، ويقول فى بعض كتاباته :

« ما أحوجنى إلى ضحكة تخرج من أعماق صدرى ، فيدوى بها جوى . ضحكة حية صافية عالية ، ليست من جنس التبسم ، ولا من قبيل السخرية والاستهزاء . ولا هى ضحكة صفراء ، لا تعبر عما فى القلب . وإنما أريدها ضحكة أمسك منها صدرى ، وأفحص منها الأرض برجلى . ضحكة تملأ شدقى ، وتبدى ناجذى ، وتفرج كربى ، وتكشف همى .

« يقولون لى : اضحك يدخل على قلبك السرور . وانا أقول لهم : « أدخلوا السرور على قلبى أضحك .. »

ولكن أحمد أمين لا يضحك ، ولا يستطيع أن يضحك لأنه «مالك الحزين» ولأنه تربى فى بيت حزن وجد لا هزل فيه . فقد كان والده — كما قلت — من شيوخ الأزهر ، ومن رجال التربية والتعليم ومن الآباء الأشداء فى تربية أبنائهم ، وقد وصف والده فقال :

« كان والدى يحاسب أولاده على تعلمهم محاسبة عسيرة ، فهو يمتحنهم دائماً فى حفظ القرآن الكريم ، وحفظ المتون ، وفى فهم دروسهم . فإذا أخطأوا حسبل وحوقل ، وقد يغضب ويضرب ! .

« وكل صحبتنا له كانت صحبة درس جديد ، أو امتحان فى درس قديم . ولا أذكر أنه مزح مرةً معنا . وقل أن ضحك فى وجوهنا . . ! »

ولذلك كان اطمئناننا ومرحنا القليل ساعةَ يغيب عن البيت ، وخوفنا ورهبتنا وحبس أنفاسنا ساعةَ يحضر » . ! !

* * *

ولقد وصف تأثره ببيئته ، فقال :

« ما أنا إلا نتيجة حتمية لكل ما مر على وعلى آبائى من أحداث . فالمادة لا تنعدم وكذلك المعانى . وقد يموت الطير وتموت الحشرات والهوام ، ولكنها تتحلل فى تراب الأرض فتتغذى النبات والأشجار . وقد يتحول النبات والأشجار إلى فحم ، ويتحول الفحم إلى نار ، وتتحول النار إلى غاز . ولكن لا شىء من ذلك ينعدم . حتى أشعة الشمس التى تكون الغابات وتنمى الأشجار تختزن فى الظلام ، فإذا سلطت عليها النار تحولت إلى ضوء وحرارة ، وعادت سيرتها الأولى .

« كذلك الشأن فى العواطف والمشاعر والأفكار والأخيلة تبقى أبداً وتعمل عملها أبداً ، فكل ما يلقاه الإنسان من يوم ولادته ، بل من يوم أن كان علقة ، بل من يوم أن كان فى دم آبائه ، وكل ما يلقاه أثناء حياته ، يستقر فى قرارة نفسه ، ويسكن فى أعماق حسه ، سواء فى ذلك ما وعى وما لم يع ، وما ذكر وما نسى — كل ذلك يتراكم ويتجمع ويختلط ويمتزج ويتفاعل . ثم يكون هذا المزيج أساساً لكل ما يصدر عن الإنسان من أعمال .. ! ! »

ثم يقول :

« ولو ورث إنسان ما ورثت ، وعاش فى بيئة كالتى عشت ، لكان إياى

أو ما يقرب منى جداً . . عجيب هذا العالم إن نظرت إليه من زاوية رأيته كلاً متشابها . يتجانس فى تكوين ذراته ، وفى بناء أجزائه ، وفى خضوعه لقوانين واحدة . وإن نظرت إليه من زاوية أخرى رأيت جزئية منه تنفرد عن غيرها بميزات خاصة بها ، لا يشاركها فيها غيرها . فمن الناحية الأولى نستطيع أن نقول ما أشبه الإنسان بالإنسان . ومن الناحية الثانية نقول : ما أوسع الفرق بين الإنسان والإنسان !

« وعلى هذه النظرة الثانية فأنا عالم وحدى ، كما أن كل إنسان عالم وحده ، تقع الأحداث على أعصابى ، فأنفعل لها انفعالا خاصاً بى . وأقومها تقويماً يختلف قليلا أو كثيراً عن تقويم كل مخلوق آخر غيرى . فالحادثة الواحدة يبكى منها إنسان ، ويضحك منها آخر ، ولا يبكى ولا يضحك منها ثالث ، كأوتار العود الواحد ، يوقع عليها كل فنان توقيعاً منفرداً متميزاً لا يساويه فيه أى فنان آخر . . » !

***

وقد تقلب أحمد أمين فى عدة مناصب قضائية وتعليمية منذ تخرج من مدرسة القضاء سنة ١٩١١ . ولكن المنصب الذى كان يؤثره ويحبه ، والعمل الذى كان يفضله على غيره هو التدريس — كان يحب التدريس كل الحب بقدر ما كان يزهد فى وظائف القضاء كل الزهد ، فهو إلى العلم والتعليم والتثقيف ألصق وأميل . وهو يمثل العالم النابغ ، كما كان « مالك الحزين » رمزاً ومثالا للعالم القارئ المفكر الذى لا يميل إلى الزحام والضجة بين الناس . ولقد اعتبر نقله من التدريس ، فى شبابه ، إلى مناصب القضاء محنة من المحن الكبرى . . على الرغم من أن القضاء فى ذاته وظيفة سامية ، فقال :

« صدر الأمر بنقلى إلى القضاء ، فعينت قاضياً بمحكمة قويسنا الشرعية وكان هذا آخر العهد بتدريسى بالمدرسة (مدرسة القضاء الشرعى) . وانتهت بذلك مرحلة طويلة هى زهرة العمر تقريبا . . خمسة عشر عاماً من سنى الشباب بين طالب ومدرس ، نلت فيها أكثر ثقافتى ، وجربت فيها أكثر تجاربى فى

الحياة ، وتعلمت ما استطعت من العلم ومن الناس . ولقيت فيها أكبر الشخصيات التى أثرت فى نفسى ، وطبعت فيها بطابع لازمنى طول حياتى » !

« دخلتها مغمض العينين ليس عندى إلا قليل من التجارب ، وخرجت منها شيئاً آخر . لذلك بكيت عليها كما أبكى على فقد أب أو أم أو أخ شقيق . وبما آلمنى أنى تركت التدريس ، وهو ما أحبه ، إلى القضاء ، وهو مالا أحبه » .

ثم يصف الأسباب التى جعلت « مالك الحزين » يؤثر التدريس على منصب القضاء فيقول :

« ظللت فى القضاء أربع سنوات : سنة فى قويسنا ، وسنة فى طوخ ، وسنتين فى محكمة الأزبكية . ومع ذلك ، فلم أستمرئ القضاء ، ولم أسعد به . كل ما أراه أسر قد خربت ، أما الأسرة السعيدة ، فلا أراها .. زوجة تطالب نفقة من زوجها ، وزوج يطالب الطاعة من زوجته ، فيحكم بالنفقة على الزوج ، فإن لم يدفع فيحكم عليه بالحبس .. ويحكم بالطاعة على الزوجة ، فإن لم تستسلم نقلت بقوة البوليس إلى بيت زوجها !

« وظللت أحكم بالطاعة وأنا لا أستسيغها ولا أتصورها !

« كيف تؤخذ المرأة من بيتها بالبوليس وتوضع فى بيت الزوج بالبوليس كذلك ؟ . وكيف تكون هذه الحياة حياة زوجية ؟ ؟ » .

« إنى أفهم قوة البوليس فى تنفيذ الأمور المادية كرد قطعة أرض إلى صاحبها ، ووضع المحكوم عليه فى السجن ، وتنفيذ حكم الإعدام ، ونحو ذلك من الأمور المالية والجنائية . أما تنفيذ المعيشة الزوجية بالبوليس فلم أفهمه مطلقا ، إلا إذا فهمت حبا بإكراه ، أو مودة بسيف » !

« ولهذا كنت أصدر هذه الأحكام بالتقاليد ، لا بالضمير ، وبما فى الكتب والقوانين واللوائح لا بالقلب . وكنت أشعر شعور من يمضغ الحصا ، ويتجرع الدواء المرير ! » .

وكذلك كان مالك الحزين « عالما يغرم بالعلم ، ومربيا يميل إلى تربية الشباب لا قاضيا يمضغ الحصا ، ويتجرع الدواء المرير فيما يعانى من مشاكل الناس . . ! فهو بطبعه واستعداده معلم ومرب ، وهو بميله وخلقه عالم يحب العكوف على الدرس والقراءة والتحصيل .

أما الفصل فى القضايا ، وسهر الليالى فى مراجعة المذكرات وأقوال المدعى والمدعى عليه ، وشهادات الشهود ، وما إلى ذلك مما يعنى به القاضى ، فهى صناعة لم يكن يميل إليها أحمد أمين بطبعه على الرغم من أن صاحبها موضع التبجيل والاحترام حيثما حل أو أقام ، وعلى الرغم من أنه يستمتع فى عمله بحرية تامة واستقلال كامل ، ولا يحس وطأة رقيب عليه إلا رقابة ضميره ومخافة الله ! .

– ٦ –

دعاء الكروان

طه حسين

طه حسين

لبيك لبيك أيها الكروان الصداح فى سماء مصر لبيك . . ما أحب صوتك إلى نفسى إذا اجتمع الجمع ، وهدأ الناس ، واشرأبت الأعناق ، وأرهفت الآذان ، وجلست فى صدر المجلس ، ورقيت فوق المنبر ، تشدو بأدبك وعلمك ، وتطرب بجهارة صوتك ، وبلاغة أسلوبك ، وتفتح لهم آفاقا جديدة ، وتنتج لهم من فنك كل جديد .

لبيك أيها الكروان الصداح لبيك . . لقد ملأت الجامعة علماً وأدباً وشدوت بالتعليم فأسمعت ، وهتفت بالعرفان فأبلغت ، وذاع صيتك واشتهر دعاؤك .

وبلغت الوزارة فى الماضى — لا كما يبلغها الآخرون — بل جاءتك تخطب كفاءتك ، وتجتدى عزمك ، فاستجبت لها راضيا ، واستقبلتها مبتهجاً ، لا لأنك تشرف بها ، ولا لأنها مغنم تسعد بها أنت وذووك ، وتستغله أنت ومريدوك . فهى عند أمثالك ممن امتحنهم الله فى هذا البلد بالإخلاص والوطنية قدر ليس أثقل منه حملا ، وشراب ليس أمر منه طعماً ، وتضحية أعمال ومحنة تخر منها الجبال .

لقد كافحت وناضلت ، وحملت فى الماضى ما لم يحمله الأكثرون ، وضحيت فى سبيل رأيك وأدبك وكرامتك . ولم يثنك اضطهاد المضطهدين ، ولا إغراء المغرين ، ولا مقت الحاكمين . ولم تأخذك الدنيا ، فتتاجر مع المتاجرين ، أو تدفق مع الساسة المنافقين . ولم تكن فى الخاشعين المستوزرين ، بل كنت مثلا لاستقلال الرأى ، وعلو النفس ، وسلامة العقيدة ، وخلق الأديب الحر ،

وهمة الوزير القدير ، فشققت الطريق ، وحطمت فى التعليم « شجرة البؤس » وأزلت الصخور أمام الواقفين !

* * *

لبيك أيها الكروان الأديب ولقد بلغت من الرتب أسماها ، ومن الألقاب أعلاها ، ولكن ما كان أحلى فى ذلك الزمن الذى تنافس فيه الكثيرون بالرتب والألقاب ، أن تدعى باسمك « طه حسين » مجرداً . فقد وهبك الله من الفكر والأدب مايسمو فوق الرتب ، وهى إلى جانب مواهبك العالية شجرات من يقطين[1] ، وخشاف من تمر وزبيب وتين ، وبساط قونى ، وثوب سقراطونى ، وجوار من عدن ، وقعاب من خل ولبن . وقد صدق الشاعر « محمد الأسمر » إذ يقول :

وليس يزدان بالألقاب حاملُها إلا إذا ازدان باسم الحامل اللقب
من لا تشرفه فى الناس همتهُ فلا تشرفه الألقاب والرتبُ

أو كما قال محمود سامى البارودى :

حبوتك ألقاب العلى فادعنى باسمى فما تخفض الألقاب حراً ولا تُسمى

* * *

لبيك لبيك يا طه . . لقد صارعت الجهل ، فصرعته ، وحاربت الظلام فهتكت غشاوته ، وهزمت ظلمته ، وكلفت نفسك الشدائد والآلام . ولم تكن كابن الرومى ، حين أطرى عيش الخمول ، وفضل البعد عن الوزارة ليأمن أخطارها ، ويشهد مصارع الوزراء حين قال :

وأحسنُ من نيلِ الوزارة للفتى حياةٌ تريه مصرعَ الوزراء

---

(١) اليقطين : النبات الذى لا ساق له . وقد غلب على القرع .

بل كنت شجاعاً فى جهادك ، قوياً فى صراعك ، مخلصاً فى تضحيتك . . ولغيرك من كراسى الحكم والسياسة يقال : « أطرق كرا إن النعامة فى القرى » . فما عرفوك ضعيفاً أو متملقاً ، وما عهدوا فيك الجبن والانقياد . وكم من السياسيين يعوزهم الإباء . ولكنك أنت الشجاع فى قولك وعملك وفى رأيك ومذهبك ، وفى زهدك فيما يطمع فيه الآخرون !

وقد كان لأدبك نصيب فى قوة عزمك ونجاحك ، فعرف الناس فى هذا العصر أن الأدب خير ما يوقظ الشعوب ، ويقيم النهضات ، ويشحذ الهمم وأن الأدباء شموس يضيئون السبيل . وأن ولاية الأمور والسلطان تحتاج إلى عبقرية الأديب ، وقد قال ابن المقفع :

— إذا ابتليت بالسلطان فتعوذ بالأدباء والعلماء !

* * *

لبيك لبيك يا صاحب « الحب الضائع » ومخلد الأيام فى « الأيام » . . إنا لا نلتقى معك إلا فى أجواء الأدب الرفيع بعيداً عن الوزارة وأجوائها ، والمناصب وأعبائها ، والمعالى وزينتها ، والألقاب وفتنتها ، فما كان ينبغى لنا وقتئذ أن نداهنك ، ونتقرب إليك ، أو نشغلك عن همومك ، أو نزاحم الناس على أبوابك ، ولا أن نقتل وقتك بما لا يفيد ، وأنت تريد ان تملأه بما يفيد .

وودنا وود الكثيرون لو كنت وزيراً للعلم والمال ، حين أتيحت لك فى الماضى الوزارة ، إذن لحققت ما ترجوه لقومك من تربية وعرفان ، ولجعلت المال للخير وفى الخير ، ولنور العلم ، لا للشر وظلام الجهل ومتاع الدنيا . ولكنك كنت من « المعذبين فى الأرض[1] لا من المحظوظين ، تعيش فى « جنة الشوك » تعانى آلامها ، وتعالج أشواكها ، وتحمل أثقالها وأنت فى ذلك رابط الجأش ، عاقد العزم ، تعمل بالنهار ، وتسجع بالليل والناس نيام ، تثقلهم البطون وتشغلهم الأحلام .

---

(١) من المعذبين فى الأرض ، وتعيش فى جنة الشوك ، إشارة كالتضمين الى كتابى طه حسين المعروفين بهذين الاسمين .

ولقد كنت فى صدر شبابك شاعراً رقيقا قبل أن تكون ناثراً بليغا ، وكم نشرت لك صحيفة الجريدة ومجلة مصر الفتاة سنة ١٩٠٩ ، وسنة ١٩١٠ شعراً تحدثت فيه تارة مع النيل ، وأخرى مع بعض الأحداث الكبرى ، أو نفست فيه عن عاطفتك ، وسجعت بغرامك وآمالك . وأذكر لك ذلك الحديث الجميل الذى قلت فيه عن النيل :

وقفة فى الصباح أو فى الأصيل   يتجلى فيها جمالُ النيـــلِ
تـَزَعُ البائسَ الحزين عن البـُؤ   سِ وتنسى المجد عذل العذولِ
رب ليل قد بات فيه لى الهمّ   نزيلا أبغضْ به من نزيلِ

أو تسجع بالحب فى « مصر الفتاة » فى يناير سنة ١٩١٠ وقد بلغت وقتئذ العشرين فقلت فى قصيدة بعنوان : « ليت للحب قضاة » :

شفـَّ قلبى ما يعانى   من تبـاريح الجوى
يعشقُ الحسنَ ولـكن   ليس يحظى بالوصـالْ
أنا من وصل حبيبى   بين صــدٍ ونوى
من عذيرى من بخيل   ضنَّ حتى بالخيـال

* * *

يا رعَـى الله عهودا   للهوى منــذ سنينْ
حين كنا فى أمان   من عيـون الرقبـاءْ
نجتنى اللذات لا نخـ   شى أذاة الـكاشحينْ
إنما العـــذال للحـ   ـبِّ وللأحباب داءْ

* * *

آه ما أحلى الأمانى   ليت أيامى تعـودْ
أنا من أمضيت من عمـْ   ـرىَ عشرين ربيعـا
غير أنى قد بلوت اللـــ   ـين والجهدَ الجهيـدْ
بين بؤس ونعيم   يذهب العمر سريعا

* * *

نعم أيها الكروان الساجع بمعانى الحب وآلام الحب فى شبابك وأنت فى العشرين من عمرك ، ولم يعرفك أبناء الجيل الحاضر شاعراً منذ أكثر من خمسين عاما ، بل عرفوك كاتبا ناثراً ، ومحاضراً جميل الصوت ، جذاب الحديث ، مجدداً فى أدبك وآرائك فى الأدب ، حتى كانت لك وللقليل من أمثالك مدرسة جديدة فى الأدب كان لها التأثير الكبير فى نهضة الأدب العربى .

لقد حفظت فى مطلع حياتك الشابة معلقتين من المعلقات العشر هما معلقتا امرىء القيس ، وطرفة بن العبد وحفظت قصـــيدة أبى فراس الحمدانى التى مطلعها :

أراك عصىّ الدمع شيمتك الصبر   أما للهوى نهى عليك ولا أمرُ

وكنت تتغنى بها ، ولقد حفظت غيرها ، حفظت الكثير من ديوان الحماسة وحفظت الكثير من أشعار الجاهليين والإسلاميين ، ولكنك عدت فأنكرت الكثير من شعر الجاهليين ، وأثرت فى ذلك ثورة سياسية فى مصر والعالم العربى ودافع عنك فيها من دافع ، وعارضك فيها من عارض ، فكنت ثائرا فى أدبك . وامتدت ثورتك إلى السياسة ، وكذلك كل من له صوت مرتفع يدوى فى الأجواء كصوت «الكروان» . !

ولقد وفيت للأدب العربى فى كل آثارك ، ومحاضراتك ودروسك فكانت آثارك ثروة نفيسة ازدادت بها ثروة الأدب العربى قديمه وحديثه ولقد أنصفت الأدب العربى فى محاضراتك فى « مكانة الأدب العربى بين الآداب العالمية » فقلت :

« كان بعض الذين يعنون بالأدب العربى ويدرسون فى المدارس الرسمية ، يزعمون ولا يتحرجون أن يقولوا إن الأدب العربى فقير فى النثر الفنى الرائع الذى نجده عند الانجليز والفرنسيين . ولست أصف ذلك إلا بأنه كلام من لم يطلع على الأدب العربى .

« إن الذين يقرءون الجاحظ ، وابن المقفع ، وبديع الزمان الهمذانى ،

وابن العميد ، ومن إليهم ، ويدرسونهم ، يرون أن الفنون التى تناولوها ليست شيئاً ضعيفاً ولا محصوراً ضيقاً ، وإنما هو أدب خصب غزير ، ليس كما يزعمون بل فيه بعض ما فى الشعر من فنون ، وله ما للشعر من إمتاع ؟

« الأدب العربى بشعره ونثره ، وعلمه وفلسفته . لا يمكن أن يقل عن الآداب القديمة الناهضة ، بل هو من غير شك متقدم على الأدب اللاتينى والفارسى .

« وإذا لم يكن بد من مناظر قديم ينحنى أمامه بعض الشئ فى إجلال وعزة فإنما هو الأدب اليونانى .

« ليست الأمة العربية مدينة للفارسية بالقدر الذى تدين به هذه لتلك . !

« إن الآداب الأربعة التى شاعت فى القرون الوسطى (اليونانى والعربى ، والرومانى ، والفارسى) أرقاها الأدب اليونانى ، ويليه الأدب العربى ، ويكفى أن نلاحظ أن الأدب العربى عاشت عليه الأمم ، وحمل لواء الفكر والفلسفة والعاطفة والوجدان ، فى الوقت الذى كانت فيه أوربا منهمكة فيما كانت فيه من ظلام وجهل .

« ويكفى أن نلاحظ أن تأثر أوربا بالأدب العربى كان واضحاً ، حتى جاءت النهضة الأخيرة التى اتصل فيها الأدب الأوربى بالأدب اليونانى .

« حمل الأدب العربى رسالته عشرة قرون ، ونقل الجذوة إلى أهله ، ثم إلى أوربا ، وهذا يكفى للاعتراف بأن الأدب العربى واسع الفضل ، عظيم الأثر ، بعيد الخطر » !

لبيك أيها الكروان الصداح المدافع عن اللغة العربية وعن الأدب العربى ، ضد ظلام الجهل والجاهلين ، وضد الحسد والحاسدين .

لبيك أيها الكروان العربى . فليس غريباً على علمك وأدبك أن تشهد بحق للعروبة وأدب العروبة ، ولغة العرب .. !

- ٧ -

كاتب النيل

محمد عوض محمد

محمد عوض محمد

وذو هامة كالتُّرس يَفغرُ عن فمٍ   يُضمُّ على مثل الحُسام المُثَلَّمِ
ويَفترُّ عن مثل المناشيرِ ركِّبت   على مِشْفَرٍ مثلِ القليبِ المهدَّمِ

ذلك هو التمساح ابن النيل ، وساكن أعاليه ، وعاشق السودان الشمالى وجبار أحيائه فى مياه الجنوب . عرفه الناس بعظم الهامة ، وبالجرأة والجسامة ، وبالدهاء والاختفاء ، والعزلة والانطواء . حتى إذا جد الجد ، وأتيحت الفرصة واتسع المجال ، جرى وصال ، وافترس ونال . لايمنعه من هجومه مانع ، ولا يدفعه عن غرضه دافع . ولا يقف أمامه إلا واسع الحيلة ، قوى الشكيمة ، صارم الإرادة والعزيمة ، ومن هو أشد منه قوة ، وأنفذ سهماً وأضخم منه جسماً ! .

يمسح النيل من المنبع إلى الشلال ، ثم يقف فى ثورة وغضب ، يحاول أن يقتحمه ، فيظفر حيناً فى مغامرة من مغامراته . وينثنى أحياناً دون غرضه ومرامه ، ويشغله مافى طبيعته من بحث وزحف فى مجرى الحياة الواسع الطويل ، وقد يقتنع بجغرافية أرضه ، وحدود بيئته وإقليمه . ثم نسمع أنه خرج عن حدوده ، واجتاز نهره إلى الأنهار الأخرى .. فظهر كما يقول الرواة فى « نهر السند » وأصبح نهرنا غير كاف لنشاطه ، وغير متسع لسباحته وطوافه ، وصار بين العباد من جماعة الرواد ، الذين سعوا فى البلاد بالخير والرشاد لا بالشر والفساد . . !

وقد كان علماء الأحياء وأساتذة الجغرافيا يزعمون أن التمساح لاينتقل ولا يدور ، ولا يسبح فى غير النيل من الأنهار والبحور ، ولكن الدكتور محمد عوض محمد تحدى هذا الرأى بطوافه كثيراً من الأقطار ، وركوبه مطية

الأسفار ، وارتياده لأكبر الأنهار ، فشوهد مؤلف « نهر النيل » وتمساح مصر والسودان ، فى الصين واليابان وبلاد تركب الأفيال ، وفى أفريقا وأوربا وبلاد الأمريكان . لا يمل الغربة ، ولا يهدأ من الطواف والسفر . يحتمل الشدائد والمتاعب ، ويفترس العقبات والمصاعب . لا يخشى البحر ، وهو ابن النهر ، ويطير فى الهواء ، وهو ابن التربة والماء . وينتقل من مصر إلى طوكيو ، ومن واشنطون إلى موسكو ، ومن الاتحاد الثقافى إلى جماعة اليونسكو ، يكتب ويحاضر ، ويدرس ويناظر ، وينتج للعلم والأدب والثقافة ، ويروى للعبرة والفكاهة والطرافة ، حتى أصبح فى عمله وأدبه « من حديث الشرق والغرب » وسرت شهرته العلمية والأدبية بين « سكان هذا الكوكب » وبين من فى العالم من ملوك الفكر ، و « ملكات الجمال »[1] اللاتى تحدث عنهن فيما كتب وألف ، وفيما كشف ووصف ، وفيما روى عن ملكات الفول المدمس ، الخالى من الحب المسوس . وفيما تفكه به من ملكات الكنافة ، الممتازة بالحلاوة واللطافة ، والمكسوة بشهى الحال ، والمحشوة باللوز والفستق وعين الجمل .

* * *

ولقد أحب الدكتور محمد عوض محمد النهر لعذوبته وهدوئه ، وفضله على البحر لثورته واضطرابه ، شأن التمساح الذى يؤثر الأنهار ، ولا يقوى على ملوحة البحار .. ولقد كتب حوارا بين البحر والنهر ، قال فيه الأول للثانى :

ما أنت أيها المجرى الحقير الضئيل الذى له طول ، وليس له عرض ولا عمق ، والذى لو شئت طمسته طمساً ، ومحوته من الوجود محوا . لعمرى أنى لجدير بابتلاعك أنت والأنهار جميعا . لولا أنك أحقر من أن أكترث لك ، أو أضيع وقتى فى جدالك » .. !

فرد عليه النهر قائلا :

« على رسلك أيها الشيخ ، وأخلق بك أن تهدىء من غلوائك ، وتخفض

---

(١) « من حديث الشرق والغرب » . و « سكان هذا الكوكب » ، وملكات الجمال » مؤلفات للدكتور محمد عوض محمد .

من كبريائك ، وإلا فتى اختلت موازين الأمور ، فأصبح الفضل للضخامة والجسامة . ماذا يجدى حجمك العظيم ، وسطحك الطويل العريض . وهذا ماؤك مالح ، ووجهك كالح ، وعملك غير صالح انظر إلىَّ ، ما أعذب مائى السلسبيل ، وما أحسن خريره وقت الأصيل ، وما أبدع مجراى من منظر جميل . والناس جميعاً يغترفون من مناهلى ، فكم رويت ظمآن ، وأشبعت جوعان . ومن ذا الذى يقرن الملوحة إلى العذوبة ، ويفضل المرارة على الحلاوة . فاعترف إذن بقصورك وعجزك ، ودعنى من همزك ولمزك » ! .

وبعد أن يدور حوار طويل بين النهر والبحر ، يشتد فيه الجدال ، ويتهكم كل منهما بصاحبه فى أسلوب طريف ، ويمن فيه البحر على النهر بأنه هو الذى يمده بالماء المتصاعد بخارا من سطحه ، يجيب النهر فى قوة وافتخار بأن ذلك ليس من عمله ، وإنما صاحب الفضل فيه الشمس التى تثير الماء بحرارتها من جميع الأنحاء ، فيتصاعد بخاراً يرتفع فى السماء سحاباً برغم أنف البحر ، ثم يسقط هذا السحاب ماء يجرى نهراً عذباً لا بخاراً طائراً . فإذا سمع البحر ذلك زمجر واضطرب ، وهاج وغضب ، وفعل ما يفعله جهلة الأقوياء بالعقلاء الضعفاء . . . !

وهكذا ينتصر التمساح لنهره ووطنه ، ولقد طالما انتصر لعروبته وقومه ، وفاخر بلغته العربية وأدبها وتراثها المجيد . وطالما ساهم فى المؤتمرات العلمية والأدبية ، مدافعا عن هذا التراث ، مشيدا بماله من فضل على حضارتنا الحديثة وعلى حضارة الغرب فى عصوره الوسطى مفاخرا بالصورة الجديدة التى انتقل إليها الأدب العربى فى العصر الحديث حيث قال فى محاضرته بمؤتمر نادى القلم الدولى :

« ونرى بجلاء أن الأدب العربى . قد خلق خلقاً جديداً ، وبدت لنا منه صورة جديدة أصولها عريقة ثابتة منبتها التراث القديم ، ولكن له ازهاراً تؤتى ثمراً جديداً وهذه النماذج الجديدة هى نماذج عربية أصيلة وليست مقلدة لأصل أجنبى »

ولقد امتلأ رأس الدكتور عوض ، وامتلأ فكره وذهنه بالعلم والذكاء امتلاء التمساح بالبطنة والغذاء ..

ولقد ذكروا عن التمساح أنه على قوته وجبروته ، ونهمه وشراهته ، لا يضن على الغير بعطائه ، فيخرج من الماء حينا بعد حين ويقف على البر فاتحا فمه لطائر صغير أرقط اللون ، يأتى إليه ، فيلتقط من بين فكيه غذاء له شهيا . يتناوله فى أمن وهدوء وفى لذة وشوق ، والتمساح مرتاح إلى ما يعطى ، مغتبط بما يجود ويفيد . . !

وكذلك كاتب النيل الدكتور عوض . فكم بحث ودرس ، وكم جاهد وأنتج وكم جمع بين الدرس والكتابة ، وبين المحاضرة والخطابة وكم كتب للعلم والاجتماع ، وكم الف للقصة والفن ، وكم نفع وأرشد وأفاد . وقد اختير لمنصب الوزارة ، ثم اختير ممثلا ثقافيا لبلاده فجاهد ، وبرهن على كفايته ، وكان فى جهاده راضيا مغتبطا ، مضحياً متواضعاً ، ولم يكن فى تأليفه وإنتاجه ولا فيما قدم من خدمات لقومه ولغته داعيا لنفسه ، ولا مدعيا على غيره ، ولا متظاهرا للناس ، بل كان العالم الوقور ، والمفكر المهيب ، والكاتب الأديب الذى لا يأبه للصغائر ، ويعف عن التفاهات .

***

وتمساح النيل عالم جغرافى ، ولكنه أديب كبير ، يكتب العلم بمزاج الأديب ويروى المعارف بحافظة رواة الشعر العربى القديم والحديث ، وأسلوبه الكتابى أسلوب أديب عالم قبل أن يكون أسلوب عالم أديب ، فهو سلس جذاب يستهوى الأسماع والأذهان والألباب .

ويميل فى كتابته الأدبية والعلمية إلى القصة ، فاذا قرأته عالما ، ظننت أنه أديب ، وإذا قرأته ناثرا ظننت أنه شاعر ، وإذا قرأته باحثا ظننت أنه كاتب روائى .

* * *

ولقد تولى الإدارة العامة للرقابة على الصحف مرتين قبل أن يكون وزيراً ، فكان الرقيب الأديب الذى يزن الأمور على حسب المصلحة العامة لا مصلحة الأهواء والأشخاص . ولقد تحدث بعد خروجه من هذا المنصب عن الرقابة فألقى محاضرة ضافية تحدث فيها عن الرقيب ووظيفة الرقيب ، كما يروى الشعر العربى ، وكما اشتهر عند صرعى الحب من الشعراء المحبين ، فتكلم عن الخضوع ، والاستسلام لحكم القضاء الذى سلط الرقيب على الشاعر المحب ، يتبعه أينما ذهب فيقول فيه ابن الدُمينة :

أحقاً عباد الله أن لستُ صادرا ولا وارداً إلا على رقيبُ
ولا زائراً فرداً ولا فى جماعة من الناس إلا قيل أنتَ مُريبُ
وان الكثيب الفرد من جانب الحمى إلىَّ ، وإن لم آته لحبيبُ

وربما دخل فى هذا الباب قول الشريف الرضى فى قصيدته المشهورة :

يا ظبيةِ البان ترعى فى خمائله ليهنكِ اليوم أن القلبَ يرعاكِ
الماءُ عندك مبذول لشاربه وليس يرويكِ إلا مدمع الباكى
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى من علم العين أن القلب يهواكِ

إلى أن يقول :

عندى رسائل شوق لست أذكرها لولا الرقيبُ لقد بلغتها فاكِ

وعلى الرغم من أن التمساح رقيب مهيب يراقب الفريسة حتى إذا اقتربت من الشاطىء هجم عليها وافترسها ، فإن الدكتور عوض لم يكن قاسياً مفترساً على غير عادة التماسيح ، بل هو كيِّس لبق ، مأمون الجانب إذا هاجم أصاب ، وإذا جرح لا يدمى . وهو يبنى ولا يهدم ويصلح ولا يفسد ، ويبعث الحياة فيما حوله ، ويجول ويطوف فى نهر النيل ويسبح من منابعه إلى مصبه ، ويصعد فى أعاليه ، ويغوص فى أعماقه ، ثم يخرج لنا بدرة نفيسة هى كتابه العظيم عن هذا النهر العظيم الخالد .

- ٨ -

عصفور من الشرق

توفيق الحكيم

توفيق الحكيم

مؤلف كتاب « عصفور من الشرق » الأستاذ توفيق الحكيم ، فيه الكثير من صفات العصافير — ما عدا أحلامها — فهو كبير العقل نابغ . ثم هو كالعصفور دقيق الحركة ، سريع التنقل ، يحاور ويداور ، وقد افتتن الناس بما أنتج من بديع الحوار .

ومع أنه ليس بذى مخاب ولا منسر كالعصفور ، لكنه ينقر نقرات صائبة فى « مسرح المجتمع »[1] يقدرها « أهل الفن » ، وتوقظ نفوس « أهل الكهف » . وتهيء بنقرها للحياة الراقية الكريمة « عودة الروح » . وكأنما كل نقرة له فى عيوبنا الاجتماعية والسياسية « رصاصة فى القلب » ! !

وهو يطير إلى « البرج العاجى » ثم يهبط إلى أسواق العامة . ويعيش فى المدن والأرياف ، ثم نسمعه يزقزق فى « زهرة العمر » أو ينوح على « شجرة الحكم » . وتارة يكون مع سليمان الحكيم ، وأخرى يحمل عصا جحا ويهيم مع « حماره الحكيم » .

وقد يسأم المجتمع ويسأم الناس ، فيفر ، إلى « القصر المسحور » وينطوى مختفيا تحت « سلطان الظلام » . ولكن حين يبتسم الصباح ، وتسكت « شهر زاد » عن الكلام المباح ، تراه يخفق بجناحيه ، ويعلو فى طرب وبراعة « تحت شمس الفكر الراقى » . . !

وهو كعصفور النيلوفر ، يهوى الانطواء على نفسه ، والسكون فى الليل ، ومع أنه كاتب اجتماعى ، فهو لا ينغمس فى الاجتماعيات . وقد قالوا عن هذا العصفور إنه يأوى وقت الغروب إلى زهرة النيلوفر وهى طافية على الماء ،

---

(١) مسرح المجتمع ، وأهل الفن ، وأهل الكهف . . كتب لتوفيق الحكيم ، وكذلك ما جاء بين قوسين فيما بعد .

فإذا دخل فيها انطبقت عليه وانغمست فى الماء طول الليل ، حتى إذا طلعت الشمس طفت ، وانفتحت أوراقها ، فيخرج منها .. ثم يعود إليها فى الغروب . . !

وكذلك توفيق الحكيم يهوى الانطواء على نفسه وهو من عصافير النهار ، وليس من طيور الليل إلا حين يطير فى أجواء الفكر . يكتب الاجتماعيات ، ولكنه لا يتقنها إلا فكراً وكتابة تحت «مصباحه الأخضر» أو فى «البرج العاجى» !

وفى توفيق الحكيم شذوذ كشذوذ «القُبرَّة — بضم القاف وتشديد الباء — وقد انفردت بقبرة غبراء كالغطاء فوق رأسها دون سائر العصافير ، وهى لا تهتم بصياح أى صائح ، وربما رميت بالحجارة فاستحسنت لها حتى يتجاوزها الحجر . وقد لبس صديقنا توفيق « قبرة » تدعى « بيريه » مدة من الزمان ، وظن الناس سيقلدونه ، ولكنه عاد فقلد الناس ، وخلع القبرة ، وبدا عارى الرأس كخلق الله ، وكما أوحى إليه المجتمع ، وكما يستقى وحيه الفنى من هذا النبع .. نبع المجتمع المصرى ، وأوضاعه ، وأشخاصه ، وأخلاقه وصوره .

* * *

ولقد كان أول ما استقى من هذا النبع منذ ٤٤ عاما — أى عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ فقد — كان المجتمع المصرى فى ذلك الحين يهتز لأمرين : السعى للتخلص من الاحتلال البريطانى ، وتحرير المرأة من الحجاب وقيود التقاليد القديمة التى عاشت فيها المصرية ردحا من الزمان وأصبحت لا تتفق وحياتها الاجتماعية الحديثة .

فى ذلك الوقت دفعته تلك الهزة الوطنية الاجتماعية إلى كتابة قصة تمثيلية اسمها « الضيف الثقيل » ترمز إلى معنى الاحتلال فى صور عصرية انتقادية . وتدور حوادثها ، ويدور حوارها حول رجل محام هبط عليه ذات يوم ضيف ثقيل ليقيم عنده يوما واحداً ، فأقام شهرا .. ولم تنفعه أية حيلة فى التخلص منه !

وكان المحامى يتخذ من سكنه مكتبا لعمله — فما يكاد يغفل لحظة، أو يتغيب عن مكتبه ساعة حتى يتلقف الضيف الثقيل الوافدين من الموكلين الجدد، فيوهمهم أنه المحامى، ويستولى على ما تيسر له من مقدمات الأتعاب.. فهو احتلال واستغلال. وأحدهما كما قال فى هذه التمثيلية «يؤدى دائما إلى الآخر»..!

وفى سنة ١٩٢٣ كتب تمثيلية أخرى بعنوان «المرأة الجديدة» ومع أنه اشتهر فى وقت من الأوقات بأنه «عدو المرأة»، فقد كان فى هذه التمثيلية نصيرا للمرأة فى حدود معينة تمليها الحياة القومية فى ذلك الحين.

وما كاد شبح الحرب الأولى يختفى أمام الأفراد والجماعات وتتجه الأمم اتجاها جديدا، حتى طاب لعصفور الشرق كفنان أن ينطلق بجناحيه الخفيفتين من جو الموضوعات القومية إلى جو الموضوعات الإنسانية، وطار إلى مصدر أوسع خصبا، وأكثر حبا، وهو «الإنسان» — الإنسان فى أفكاره الثابتة فى كل زمان ومكان.. الإنسان فى حياته العامة الباقية. الإنسان فى طباعه وميوله وانطباعه فى جميع أحواله وأعماله وفى مختلف بيئاته وأجوائه.

كان ذلك منذ بدأ يكتب تمثيلية «أهل الكهف» سنة ١٩٢٨ التى ظهرت ونجحت سنة ١٩٣٣، ثم تمثيليات «شهر زاد» و «الخروج من الجنة» ثم «نهر الجنون». وقد انتهى فى هذه التمثيلية الأخيرة إلى أن الناس مجانين وأن أحلامهم كأحلام العصافير، وأنه لا فرق عندهم بين العقل والجنون. ثم يشرب «اوزير» — أحد أشخاص هذه القصة — من نهر الجنون كسائر أهل المملكة. فيقول له الملك فى دهشة.

أتطفىء من رأسك نور العقل بيديك؟!

فيرد الوزير قائلا:

— نور العقل! ما قيمة العقل فى وسط مملكة من المجانين! ثق «يامولاى» أننا لو صرنا على ما نحن فيه، لا نأمن من أن يثب علينا هؤلاء القوم. إنى

لأرى فى عيونهم فتنة تضطرم ، وأرى أنهم لن يلبثوا حتى يصيحوا فى الطرقات الملك ووزيره قد جنا ، فلنخلع المجنونين !

فيقول الملك :

— ولكننا لسنا مجنونين !

الوزير : — كيف تعلم ؟ !

الملك : — ويحك أتقول جدا ؟ !

وينتهى الحوار بأن يشرب الملك أيضا من نهر الجنون ، فيقول :

— إذن فن الجنون ألا أختار الجنون

الوزير : — هذا عين ما أقول !

الملك : — بل إنه لمن العقل أن أوثر الجنون

الوزير : — هذا ما لا ريب عندى فيه

الملك : — ما الفرق إذن بين العقل والجنون ؟ !

الوزير : (وقد بوغت) — انتظر .. (يفكر لحظة) . لست أتبين فرقا فيشرب الملك ، ويجن كسائر أهل مملكته ، .؟

* * *

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى طار العصفور إلى فرنسا ، وكان وقتئذ عصفورا شابا من عصافير الشباب الذين يطيرون إلى حقول العلم والحضارة والمدنية الحديثة . وبعد عودته أصدر كتابه « عصفور من الشرق » وهو قصة تمثيلية ذات حوار فلسفى تناولت فى ذلك العهد الأفكار والاتجاهات العالمية كما رسمت صورة العالم بشرقه وغربه فى السنوات التى تلت الحرب العالمية الأولى

فى ذلك الوقت كانت الدنيا تضطرب بأفكار جديدة ، وتتصادم فيها الاتجاهات المختلفة والعقائد المتباينة ، وكانت هذه الاتجاهات ، وما ظهر فى أوربا وقتئذ من أفكار جديدة تنتقل بسرعة منها إلى بلاد الشرق .

وكانت التجربة الاشتراكية وقتئذ فى مرحلتها الأولى ، ولم تكن قد وضحت أو أسفرت عن نتائجها ، ولم تستطع أن تدخل على النفوس الاطمئنان التام ، أو الاقتناع الصحيح حتى فى قلوب العمال فى بلاد الغرب

وكان العالم مضطربا بين المثالية والمادية ، لذلك كانت أشخاص « عصفور من الشرق » تمثل فى حوارها الآراء والاتجاهات الجديدة تبعا لظروف العالم فى ذلك الحين . ولقد كان توفيق الحكيم يمثل شخصية « محسن » بين أشخاص هذه القصة التى تضمنت من الآراء والاتجاهات ما وضح الكثير منه الآن ، وما لا يزال الحكم عليه معلقا حتى اليوم ، لأن يومه لم يأت بعد ، ولأن الصراع بين المادية والمثالية لم ينته أيضا فى هذا العصر ..!

على أن هذه القصة بالذات تحلل شخصية توفيق الحكم ونفسيته وحياته وطبيعته الفنية ، واتجاهاته فى مرحلة الشباب .. !

* * *

ولقد طار هذا العصفور بعد الحرب العالمية الثانية إلى جو فنى جديد تمليه الحياة الجديدة التى انتقل إليها المجتمع المصرى ، والعالم الإنسانى فى أعقاب هذه الحرب ، فقد اتجه الأفراد والجماعات إلى نشاط جديد ، وميدان جديد ، هو ميدان المال وسلطانه ، وميدان المنافسة الاقتصادية ، والتسابق إلى الغنى والثروة ، فظهر طراز حديث من الناس هم : رجال المال والأعمال ، وأصحاب الشركات وأثرياء الحرب .

وتأثرت المجتمعات بالنظم الحديثة ، وسرعة التقلبات السياسية ومقتضيات الحياة العصرية ، فظهرت ألوان من الأخلاق والعادات تساير طموح الناس إلى الثروة والأبهة والجاه ، والمنافسة فى الرفاهية ، وحب التملك ، والرقى المادى ، والتظاهر الاجتماعى .

وتطورت المرأة العصرية مع هذا التطور ، وانتقلت بعد الحرب العالمية الثانية إلى حياة أخرى أجرأ من حياتها التى عاشتها بعد الحرب الأولى ، فأصبحت لا ترضى بالشعور وحده ، أو بالحصول على بعض الحقوق فى مزاولة أعمال

الرجال ، بل أخذت تطالب بالمساواة التامة وتزاحم الرجال فى كثير من المهن والصناعات والأعمال . ونشطت إلى المطالبة بحرية أوسع ، وحقوق أكثر لا تقل فيها عن الرجال . . . !

* * *

كان من ذلك كله تطوير فى الحياة الفنية للفنان « توفيق الحكيم » وكان له منه وحى فنى أوسع أفقاً ، وأغزر إنتاجا فى هذه السنين الأخيرة . التى أصدر فيها عشرات من القصص والتمثيليات التى انتزع حوادثها وصورها من واقع الحياة ، حتى ما يبدو فيها أحيانا أنه خيال ، لأن وقائع الحياة فى عصرنا الحديث أغرب من نسج الخيال ، ولأن الحياة العصرية فى نسجها لحوادثها وعجائبها أقوى من الفن ، وأجرأ من الفنان . . !

لهذا تطور العصفور الفنان « توفيق الحكيم » بعد مرحلة الشباب وانتقل فى كهولته إلى طور جديد حين استمد زاده من واقع الحياة ومن المجتمع الإنسانى الجديد ، فاستطاع أن يطير من الشرق إلى الغرب ، ويجارى سور القصة ، وصقور المسرحيات وأن يرتفع إلى أفق أرحب فى ميدان الأدب الروائى . . !

- ٩ -

بلبل على شجرة الدر

عزيز أباظه



عزيز اباظه

بلبل حيران

عزيز أباظة

بلبلٌ ينظم الهديلَ قصيداً	سَكنَ الروضَ ناعماً محسُوداً
راشه الخطبُ بالسهام فأضحى	باكياً ينظم الشجونَ نشيدا
كلَّ حين تَراه من فرط شجو	مُبدعاً فى القريض لحناً جديداً
شَاقه إلفُهُ وأقلقه الوَجـ	ـدُ ، فأمسى بكاؤه تَغريداً

ذلك هو عزيز أباظة : بلبل من بلابل الأشعار ، وكنارى من نوابغ الكنار ، بحترى اللسان ، مبدع الغناء والألحان . تتبارى فى شعره الأنغام والأناشيد ، فلست تعرف أيها النشيد ، وأيها القصيد ؟ . . وهل تغريده بكاء أم بكاؤه تغريد ؟

هو ساجع صداح ، يؤثر الليل كما يؤثره هذا الطائر الجميل ، فلا تسمعه بين الناس داعيا لنفسه بغنائه وموسيقاه ، بل يدع الناس يستمعون إليه ويتزاحمون عليه ، ويرتدون الليل ساهرين ، يمتعون أنفسهم وأرواحهم بما يبدع من شعر رائع ، وفن رفيع .

قال الشعر منذ العاشرة من عمره ، ولم يعرف بالنبوغ إلا فى كهولته . فتبوأ مكانه فى الطبقة الأولى من شعراء العربية ، واشتهر بلا جهد فى الشهرة ولا جهاد وفرضت قدرته نفسها على تقدير الناس ، وإذا هو ينهض من فراشه — على حد تعبير اللورد بيرون — فيرى نفسه ذائع الصيت مشهوراً ! . . وكان من قبل منطويا على نفسه ، يقول الشعر ويتغنى به فى أوقات فراغه بعيدا عن الأنظار . وكأنما يخشى نقد الناقدين ، أو يستحى أن يعرف بما لا ينبغى أن يعرف به الشعراء النابغون . فآثر الانزواء والانطواء زمنا طويلا ، حتى كانت القارعة بوفاة زوجته الحبيبة إلى قلبه وروحه ، فانبعثت ملكته الشاعرة بتلك « الأنات

الحائرة » . فدوت بين القلوب والأسماع ، وعرفت على قلة ما طبع منها فى جميع البقاع ، قال فيما قال فيها :

فقدتها خلة للنفس كافية تكاد تغنى غناء الماء والزاد
ياأخت ذى الرونق الموشى من عمرى وعدل نفسى من الدنيا وأولادى
قد ذقت بعدك يتماحز فى كبدى وذاقه فى ربيع السن أكبادى

وقد كان من قبل سعيداً بهذه الزوجة ، هنيئاً بحياته الزوجية . ثم رزىء فيها هذا الرزء الجسيم، فأثارت ملكته المكبوتة ، فإذا هى تئن ، ثم تنوح ، ثم تصيح ، ثم تصدح ساجعة باكية ، وإذا الناس يلتفتون إلى هذا الزوج الثاكل المكلوم ، وإذا هو أعظم من زوج ، وأعظم من أخورفيق . ولم يكن من المألوف عندهم أن يسمعوا أو يقرءوا لشاعر يرثى زوجته هذا الرثاء الحار البليغ . . إذا استثنينا فى القدماء جريراً فى رثاء خالدة أم أولاده ، وابن الرومى فى رثائه لزوجته ، وفى المحدثين محمود سامى البارودى . . !

* * *

تلفت الناس فإذا هم يرون عزيز أباظه شاعراً كبيراً ، ولم يكن لهم عهد أن يروا مديراً لإحدى مديريات القطر المصرى وقتئذ شاعراً كبيراً ، كأنما الشعر حرام على الإدارة والمديرين . ولكن هذه القارعة ما لبثت أن ألهبت نفسه وروحه فأخرج « قيس ولبنى » قصة مسرحية وشعراً تمثيليا كأحسن ما توضع القصص المسرحية وينظم الشعر التمثيلى . فبلغ الذروة أو كاد . . وجال مع أحمد شوقى فى هذا المجال ، وإن لم يبلغ مبلغه . . وكان شوقى أستاذاً له ورائداً ، عرفه واتصل به وهو طالب وتأثر به تأثراً شديداً

وقد كانت رواية « قيس ولبنى » صدى لوعته وأحزانه لفقد زوجته الوفية ، فطالما لمس الناس فى فصولها ومشاهدها ألوانا من اللوعة والأسى والأحزان ، على لسان « قيس » حيث يقول :

كنت فى ناعم من الدهر أضحى وعلى مونق من العيش أمسى

بين وشي الهوى ، وفى حلل الرَّفـــهِ ولبنى راحى وروحى وأنسى
أين روضى الذى سقيتُ بدمعى ؟ أين ظلى الذى مَدَدتُ وغرسى ؟
أين عشٌ قضيتُ فيه ولبنى سنواتٍ مرت كليلةِ عرسِ
زال عنه هزارُه وجفاه فتداعى ما بين يوم وأمس

ولقد كنت أعلم أنه وضع « قيس ولبنى » قبل ظهورها بعدة سنوات وكان الأدباء من أصدقائه يتناقلون حديثها . ثم ظهرت هذه الرواية فكانت القدرة فيها محل التقدير ، وكان الإعجاب بها فوق الكثرة من المعجبين وكانت حجة قائمة على أن اللغة الفصحى أصلح فى الرواية التاريخية على المسرح الفنى الرفيع مما فى العامية من ابتذال وشنشنة وترقيع .

ثم جاءت بعدها أخواتها : العباسة ، والناصر ، وشجرة الدر ، فسجلت لمؤلفها النابغ مكانة مرموقة فى هذا الفن المسرحى الممتاز بأسلوبه الشعرى ، وبجهوده المضنى . !

* * *

وقد اختار هذا البلبل الشاعر لرواياته التمثيلية طائفة من مواقف التاريخ العربى وأحداثه الكبرى ، كما فعل المرحوم أحمد شوقى فى رواياته التمثيلية ، وكما فعل شيكسبير فى مسرحياته الخالدة ، وكما نهج نهجه من أتى بعده من أعلام المسرحيات الشعرية التاريخية من أمثال راسين ، وكورنى ، وغيرهما ممن وصلوا الماضى بالحاضر وأفادوا الحاضر من أحداث الماضى ، وما فيه من عظات وعبر ودروس وتجارب .

وقد عنى العرب بتسجيل الكثير من الأحداث الكبرى ، والقصص والأساطير تسجيلا أدبيا أسبغ عليه فن الأدب جماله وروعته شعراً ونثرا . ولكنهم لم يعنوا بتمثيله تمثيلا مسرحياً ، لأن المسرح لم يكن معروفا عند أجدادنا العرب . ولذلك لم يفكر أديب من أدباء العرب القدماء فى وضع مسرحيات شعرية أو نثرية لهذه الأحداث التاريخية والأساطير الروائية . . على

كثرة ما عندهم منها فى الجاهلية ، وبعد ظهور الإسلام .. حتى كان العصر الحديث الذى انتشرت فيه المسرحيات الأجنبية فى الشرق والغرب ، فتأثر الأدباء العرب بهذه المسرحيات ، فنهجوا نهجها . وكان أن وضعت عدة مسرحيات نثرية مثلت على المسرح العربى ، ثم وضع شوقى تمثيلياته الشعرية الخالدة ، وفى طليعتها كليوباترا ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعنترة ، وعلى بك الكبير ...

ولقد طار عزيز أباظه من قفصه الذهبى الذى عاش فيه زمنا طويلا بعيداً عن الناس ، واستخدم موهبته الشعرية الكامنة فى التقاط هذه الأحداث الكبرى التى صاغها فى روايات مسرحية شعرية من الفن البديع ، والشعر البليغ ، وخرج لجمهور المسرح ولقراء العربية بهذه المفاجأة الصاروخية ، فقد عرفوه موظفا كبيرا من أسرة محترمة . يعيش فى هدوء واستقامة وينعم بسيرة حميدة ، وأخلاق كريمة ، لا يميل إلى ما يميل إليه جوارح الطيور ، بل يؤثر السلامة والمحافظة على الكرامة ، وينأى عن المنازعة والخلاف ، ويفر صاعدا إلى رءوس الأشجار ، ويختفى وراء الغصون والأزهار ، ليغنى لنفسه ، قبل أن يغنى لغيره ، ويمتع وجدانه بما ينظم من الأشعار .

* * *

ولقد طار إلى أقطار الحضارة الإسلامية الكبرى طيرانا واسع المجال ليختار من أحداثها ما يصلح لمسرحياته ، وما ينسجم مع أهدافه فرأيناه محلقا فى « المدينة المنورة » حيث قيس بن ذريح وحبيبته لبنى . ثم رأيناه محلقا فى بغداد مدينة المنصور العباسى حيث العباسة أخت الرشيد وجعفر البرمكى . ثم رأيناه يطير فى سرعة وقوة وجمال إلى جو من الأجواء الذهبية للحضارة الإسلامية فى الأندلس ، فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، الذى جلس على عرش الخلافة خمسين عاماً . وكان عهده من أقوى عصور الإسلام ، وأسماها فناً ، وأغزرها علماً ، وأوفرها عظمة ومجدا ، وهو مؤسس أول مدرسة طبية فى أوربا ، . هى « مدرسة الطب بقرطبة » وقد أنشأ دار الكتب فى

غرناطة ، التى كانت تضم ستمائة ألف مجلد ، وهى أضخم مكتبة وقتئذ على وجه الأرض !

وقد شاد عبد الرحمن الناصر مدينة الزهراء على سفح جبل العروس ، وأقام فوق طبقاتها الثلاث « دار الروضة » . وهى قصر من أجمل قصور الدنيا العجيبة ، كان يقوم على (٤٣٠٠ عمود) ويُدخل إليه من ألف وخمسمائة باب. وقد جاوزت نفقاته سبعة ملايين دينار !! ..

فى هذا الجو البديع والحضارة الراقية والمجد الإسلامى، .. حلق هذا البلبل الصداح ونظم لنا « مسرحية الناصر » أجمل نظم ، ووضعها وضعاً مسرحياً فى فصول ومشاهد من أجود مارضى عنه الفن ، ورضى عنه النقاد .

ولقد أشاد فى هذه المسرحية بمجد الإسلام فى ذلك الفردوس الإسلامى المفقود ، فقال على لسان الوصيف « صاعد » :

قَرِّى وتيهى أرضَ أندلسٍ فاليومَ لآلاء الضحى سَمْحُ
اليُمْنُ معقودٌ بغُرتِـهِ والنصرُ نصرُ الله والفتحُ

فيقول الوصيف « منجد » :

لم يشهد الإسلام مذ عمر الد نيا فبدّلَ ليلها صُبحا
مجداً كهذَا المجدِ روعتُـهُ فى الدهر لا تنسى ولا تَمحىَ

فيرد « صاعد » :

مَنْ منىْ الدنيا بأجمعها أنا ملكناها ودناها
الناصرُ المأمولُ سيدُها قد ضمَّ أقصاها لأدناها

* * *

أما مصر التى ولد فيها وتربى ، وبنى فيها عشه الجميل ، فقد حلق فى عصر من عصورها التاريخية المزدحم بالعواطف والآمال والآلام ، المضطرب بأحداث السياسة والوطنية ومعارك الحرب ، وهو عصر « شجرة الدر » أول ملكة فى الإسلام فنفحنا فى هذه الرواية نفحات بديعة من الشجاعة والتضحية والبسالة والوطنية

التى سادت بين أبناء العروبة فى تلك الحرب الصليبية التى انتهت بأسر لويس التاسع ملك فرنسا .

ولم ينس أن يبرز ما للمرأة من مواقف وطنية وإنسانية باسلة فى الشدائد ، فرأينا شجرة الدر تشد عزيمة زوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب قائلة له :

لا تهن للخطوب يعصفْ بك الضعْـ ـفُ ويصرفكَ عن مَراقى النجاحِ
إنْ أزالوك عن ولاية مصر فاشرع العزمَ واحتشد للكفاحِ
والمقاديرُ ذات كرٍّ وفـرٍّ وغـدو وجيئـة ورواحِ

وإذا كان عزيز أباظة لم يصدح فى المناسبات الوطنية والاجتماعية بقصائده ، كما فعل شوقى ، وحافظ ، ومطران . . فإنه لم يغفل ذلك فى مسرحياته الشعرية ، فقد هز عدة مرات نفوس الجماهير الذين شاهدوا هذه المسرحيات بما كان يتخللها من نفثات وطنية . وعظات اجتماعية ، وحكم فلسفية ، حتى أنه لم يغفل الأحداث المعاصرة وقتئذ ، فقال فى رواية شجرة الدر عن الوطن والوطنية ، وعن الأحزاب والأقطاب ، والجهاد فى سبيل مصر والحرية :

وجهادٌ فى الله والوطنِ المفـ ـدىً حتى نفوز بالآرابِ
آزرانى نذبُّ عن مجد مصر يا صديق يا رفيق شبابى
ولتكنْ آية لنا وشعارا مصرُ فوق الأحزاب والأقطابِ

— ١٠ —

ديك العلم صاحب ساعات السحر

الدكتور

أحمد زكي

أحمد زكى

مُتوجٌ بعقيق مُقرّطٌ بلجين
عليه قُرطُقٌ وشى مُشمرُ الكمين
قد زيّن النحر منه ثنتان كالوردتين
حتى إذا الصبح يبدو مطرّز الطرتين
دعا فأسمع منا من كان ذا أذنين

هذا هو الديك ، أو هذا هو مؤلف « ساعات السحر » وقد اخترت الديك له شبيهاً ورسما فمن ذا الذى يستيقظ فى هذه الساعات ، أو قبيل هذه الساعات إلا أن يكون ديكا ، أو يكون الدكتور أحمد زكى؟ . غير أن الديك يستيقظ ويوقظ النائمين بصياحه ، والدكتور أحمد زكى يستيقظ ، ويصيح بصرير قلمه ، ولا يقلق النائمين بهذا الصرير الموسيقى الجميل . . !

اعتاد الدكتور أحمد زكى أن يكتب مقالاته للصحف ومحاضراته للراديو فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، حين يسكن كل شىء ، وتنام المدينة كلها ، فلا مسموع فيها ولا مقروء ، وتهدأ الحياة من أحداثها وهمومها وأقاصيصها حتى « قصة الميكروبات » بأنواعها وأهوالها التى عنى بها وألف فيها وترجم وهو فى ذلك يستوحى الجمال ، ويطوف بالفكر فى أجواء الخيال ، ولكنه الخيال الأصيل الذى لا تثيره — كما يقول — حشيشة الليل أو حشيشة النهـار . . !

والديك طائر مرفوع الرأس ، حسن العرف ، فيه الشجاعة والصبر والجولان والتسديد ، وله خبرة بساعات الليل ، ومقادير الزمان ، وهو يقسط أصواته على ذلك تقسيطاً موزونا لا يغادر منه شيئاً ، ولا يفوته شىء . !

وكذلك الدكتور أحمد زكى يكاد يكون فوق الاسطرلاب وفوق مقادير الجزر والمد، فعلى الرغم من تعدد مشاغله، وكثرة «سلطاته العلمية» فهو يقسط جهوده وزمنه على واجباته تقسيطاً موزونا، ويضعها بدقة فى «أنابيبها» وكأنما الحياة عنده «معمل» يخضع للتحليل والتدقيق والتقسيط . . !

وقد زعموا أن الديك كان له فى سالف الزمان جناحان يطير بهما فى الجو، وأن الغراب كان ذا جناحين كجناحى الديك لا يطير بها وأنهما تنادما ليلة فى حانة يشربان فيها، فنفد شرابهما . فقال الغراب للديك: «لو أعرتنى جناحيك لأتيتك بشراب» فأعاره جناحيه، فطار بهما الغراب، ولم يرجع إليه . فأخذ الديك يصيح كل ليلة فى ساعات السحر استدعاء لجناحيه من الغراب، ولكن الغراب الماكر لا يجيب الصياح، ولا يسمع النداء!

ولم يمكر أحد بالدكتور أحمد زكى، ولم يأخذ منه ريشة ولا قلما ولا فكراً ولاخيالا فى تلك الليلة التى قضاها فى قارب بالنيل منذ ثلاثين سنة ونيف مع جمع من أصدقاء اللهو والشباب حين ثقلت الظلال، واشتد الظلام وامتنع النظر فلماذا يصيح على الدوام؟:

إنه يصيح فى الراديو، ويصيح فى الصحف بهؤلاء الذين قال عنهم: هربوا من الحياة فلاحقتهم»، فهو يلاحقهم بصياحه، ويناديهم بنصائحه ليعودوا إلى الحياة ويحتملوا مشاقها بصبر وإيمان، ولا يقتلوا أنفسهم بالقلق واليأس، وحساسية النفس . . ؟

* * *

وإذا كان الديك لم يتعلم من الغراب، ولم يأخذ منه حذره، فقد تعلم الدكتور أحمد زكى «حكمة من حمار وجزرة» وهو أول من دافع عن دولة الحمير، دفاع حكيم خبير، فى رسالة طويلة سماها «نفثة المصدور فى الدفاع عن الحمير» وقد هزت أريحيته لوضع هذه الرسالة حادثة حمار حزين رآه فى قرية بالريف المصرى وقد انهال عليه صاحبه ضرباً وسباً، فكتب يدافع عنه هذا الدفاع الحار، الذى سيبقى ما بقى الليل والنهار، درساً وعبرة لمن أنكر ذكاء الحمار:

ويختلف الديك عن الدكتور أحمد زكى بأنه لا يحب الحمار ، ويشفق من نهيقة ، ولا يخضم خضمه فى الطعام ، بل ينقر الحب نقرا ويحمله بمنقاره إلى الدجاج ، فإذا ظفر بشىء من الحب وهن غائبات دعاهن إليه ، وقنع منه بدون حاجته توفيرا عليهن ، وهو يعمل بقول الحكيم لابنه :

« يا بنى عود نفسك الإيثار ومجاهدة الشهوة ، ولا تنهش نهش السباع ، ولا تخضم خضم الحمير ، فإن الله جعلك إنسانا ، فلا تجعل نفسك بهيمة » !!

وقد عرف الديك أنه مزهو بريشه وجمال شكله ، وأنه كثير الحب متعدد الزوجات ، ولكن الدكتور أحمد زكى — على ما أفاء الله عليه من جمال — يختلف عن الديك فى هذه الميول ، فهو قد أحب وتزوج من أحب وبقى وفياً لحب زوجه وأسرته ، وإذا صاح يوما فى احدى كتاباته « عطشان ياصبايا » فإنه لايصيح عطشا إلى الحب ، ولاغراما بغادة الكاميليا ، ولكن للبحث عن حقيقة الحياة ، وللكشف عن جمال الكون وأسرار الطبيعة التى يبحث عنها لافى المجمع اللغوى الذى يزوره فى العام مرة ليحضر مؤتمره ، ثم يعود إلى حيث اختير رئيسا لتحرير « مجلة العربى » بالكويت .

***

ولقد عشت مع الدكتور أحمد زكى عدة سنوات فى رياسة تحرير الهلال ، وبعد هذه الرياسة ، فرأيتنى أعيش إلى جوار مدرسة فى العلم ، ومدرسة فى الأخلاق والتجارب المفيدة . فكنا أنا وزملائى نقدره لعلمه وفضله ، ونكبره لأخلاقه وصفاته ، ونتخذ منه قدوة حسنة فى حسن المعاشرة ، وسعة الصدر ، والسمو عن الصغائر ، ونرى فيه من التواضع الكبير ما يزيدنا إعجاباً به ، وإكباراً لشخصه !

وإذا كان لأصحاب كل فن وكل صناعة وحرفة أخلاق يتميز بها أصحابها عن سواهم من أصحاب الفنون والحرف والصناعات فإن الدكتور أحمد زكى يمتاز بخلق العلم وأخلاق العلماء . فهو عالم فى خلقه كما هو عالم فى بحوثه وإنتاجه ،

فما ينطق عن هوى ، أو يدعى لنفسه ما ليس له ، أو يجيب بما لا يعلم ، أو يجرى وراء الظنون .

ولقد كانت له عدة مواقف فيما انتشر بين الجمهور فى السنوات الماضية من بعض الظواهر الطبيعية والخيالات الجوية التى أوّلها بعض العلماء تأويلات ليست من العلم فى شىء . فامتشق الدكتور أحمد زكى قلمه العالم ، وبدد ما قيل فيها من مزاعم ، وما خطر فيها للناس من خواطر وظنون !

ولقد كان فى شبابه مدرساً ، وتخرج على يديه عدد غير قليل من الجيل الحاضر ، وكان يزامل الأستاذين عباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد القادر المازنى وقتذاك فى مدرسة واحدة قبل أن يكون موظفاً بالحكومة . وكان حريصاً على توجيه الشباب ، وإنصاف الشباب حتى أنه لما تولى رياسة تحرير الهلال كتب فى عدد يناير سنة ١٩٤٧ مقالا بعنوان « انصفوا الشباب » . وقد دافع فيه عن شباب مصر والعرب دفاعاً حاراً وصاح فى وجه الكهول والشيوخ من آبائهم صيحة أيقظت النائمين ، لأنها كانت صيحة داوية كصيحة الديك فى وقت السحر ، بل لعلها كانت أقوى من صيحة الديك ، لم توقظ النائمين وحدهم ، بل أيقظت اللائمين لشباب اليوم ، دون أن يبحثوا عن الأسباب التى يلومون من أجلها الشباب ، ودون أن يهيئوا لهم مايحل مشاكلهم ، ويفتح لهم الطريق أمام المستقبل ، ولقد قال لهؤلاء اللائمين :

« إن شباب مصر أو شباب الشرق بخير فى صميمه . والشباب عصب الأمة ، فإن لم تعينوه فلا أقل من أن تنصفوه » !

ولقد وجد الشباب فى عهدنا الجديد — عهد الرئيس جمال عبد الناصر — العناية الكبرى بما أتاح لهم من فرص التربية والتعليم ، وبما فتح لهم من أبواب المستقبل ، وبما شيد لهم من مؤسسات ثقافية وتربوية ورياضية ، وبما بذل لهم من رعاية واسعة النطاق ، حتى أنشأ فى سبيل العناية بشئونهم وزارة جديدة باسم « وزارة الشباب » .

* * *

والدكتور أحمد يؤمن بالعلم إيماناً عميقاً . وهو يرى أن الإيمان بالعلم يزيدنا إيماناً بالله . ولقد ألف كتاب «مع الله فى السماء». وقال عنه إنه «كتاب إيمان» . وهو أحد كتابين فى هذا الموضوع . أما الثانى فهو «مع الله فى الأرض» . ولم يظهر بعد ، ولعله يظهر قريباً . ولقد قال فى مقدمة الكتاب الأول :

« عبادة الله بغير علم كعبادة الأصنام » . !

« فرق هائل بين أن يعبد الجاهل ، وأن يعبد العالم » !

« الجاهل الذى يعبد الله ، وهو لا يدرى شيئاً عن الله وعن آثاره وعن محكم آياته كما يكشف عنها العلم ، كاد أن يعبد الله كما يعبد الصنم ، لأن اقتناعه بقدرة الله ، وبعظمة الله ، فى أسلوبه ، وفى منهجه ، وفى مقداره كمثل اقتناع يقتنعه عابد الوثن بوثنه » !

« ينشأ عابد الوثن على ما نشأه أبواه . قيل له إنه قدير ، فآمن ، وإنه يعطى الشر ويعطى الخير فآمن . . وحفظاه من التعاويذ ما يدفع به شره ، ومن الأدعية ما يجلب به خيره . وينشأ يعبد الله على جهل » .

« وغير هذا عبادة العلماء » .

« إن عبادة العلماء ليست عبادة لفظ فحسب ، وإنما هى عبادة فكر وعبادة تأمل .. والعبادة عند نفسى هى استكناه المعبود ، بقدر ما يستطيع الإنسان من قدرة .. والعلم هو سبيل المعرفة بالله ، وهو السبيل الأول والأقوم . وهو آخر سبيل تجوز أن ترتفع إليه مرتبة » .

« والباحث فى العلم إذا استهدف ببحثه الكشف ، ولو بعض الكشف فى جوانب الله ، فهو أكبر عابد ، وأكرم قائم وراكع وساجد .. » !!

- ١١ -

«بولدوج» أباظة

محامي وصحافي وسياسي


فكرى أباظه

فكرى اباظه

فى طلعة فكرى أباظه الخلابة ، ونفسيته الجذابة ، وميوله الرياضية وطباعه الحسنة الرضية ، ما يشبه الكثير من « البولدوج » فى صفاته وطباعه . فقد امتاز فى خلقه وأخلاقه ، وتسامت فضيلته عن غيرها من الفضائل فعرف « البولدوج » بالأمانة التى لاتبارى ، والصداقة التى لاتجارى ، واشتهر بالتفانى فى الإخلاص إذا أخلص ، وفى الثورة إذا غضب أو ثار . وهو عظيم الاعتداد بنفسه ، قوى الثقة بها ، صلب العود ، رهيب الوثبة والهجوم . . ولكنه فى أحواله العادية لين العريكة ، رقيق الحاشية ، عطوف ودود ، يألف الناس ويألفونه ، ويحبهم ويحبونه وقد يعفو عنهم إذا أساءوا إليه ، ويتغاضى إذا تجنوا عليه .

ولو أن بين مملكة الحيوان « صاحبة جلالة » لاختير البولدوج رئيساً لها ونقيبا ، ولم يكن أليق بأحد غيره أن يلقب بهذا اللقب ، ولا أن يطمع أن يحل محله بما له من أخلاق تصلح لمعالجة السخائم ، ومنازلة العظائم . . وقد سئل الأستاذ فكرى يوما :

— أى حيوان تود أن تكون ؟

فأجاب على الفور :

— البولدوج ! .

ولعله لو سئل البولدوج :

— أى إنسان تود أن تكون ؟

لأجاب فى فخر وإعجاب :

— فكرى أباظه !

فقد جمع الله فيهما الكثير من التشابه والتماثل ، ولكنه ميز الأستاذ فكرى بإنسانيته العليا ، وفكره الراقى ، وأباظيته الأصيلة ، ومنبته العريق .

ولقد تفتحت مواهبه فى الكفاح على غرامه بالحرية والحياة الحرة الكريمة منذ فجر شبابه . وكان من أساتذته فى المدرسة مدرس يدعى « مختار أفندى نجيب » ، فسأله ذات مرة :

— أى الأعمال تريد أن تشتغل بها بعد مراحل التعليم ؟

فأجاب :

— أريد أن أجاهد للحرية ، وأن أكون حراً . . .

وكان ذلك منذ ثلاث وخمسين سنة ، وكانت سنه لا تزيد عن اثنى عشر عاما ، فقد ولد — على أصح الأقوال — عام ١٨٩٩ فودع شيخوخة القرن التاسع عشر فى نحو عام أو عامين من طفولته فهو الآن فى الرابعة والستين . . على أصح الأقوال أيضا . . والعهدة على الراوى ! .

* * *

ولهذا العمر المبارك تاريخ حافل بجلائل الأعمال ، فقد كان الأستاذ فكرى تلميذاً رياضياً نجيباً فى مدرسة الجيزة الابتدائية ، وطالباً نابغاً فى المدرسة السعيدية ، وزعيما للطلبة فى مدرسة الحقوق ، وثائراً بارزاً فى الثورة الوطنية عام ١٩١٩ ثم نابغاً من نوابغ القلم واللسان .

ولم يكن أثقل على نفسه فى مراحل التعليم من مادة « الرسم » ولم يتجاوز فيه الدرجة الصغرى . وكان مستر مارلو فى المدرسة السعيدية سرعان ما يهتاج حينما يرى رسومه الرمزية « السيريالزم » ! ولم يكن هو الوحيد بين نوابغ مصر الذين لا يتقنون الرسم . فقد ذكروا ان المرحوم نجيب الهلالى أحد رؤساء الوزارة السابقين كان أضعف إخوانه فى هذه المادة حتى أنه سقط فيها فى الامتحان النهائى ، ورأت (وزارة المعارف) أن تنجحه لنبوغه فى المواد الأخرى ، فنجح وكان أول الناجحين فى الترتيب ! .

ولقد كان تفوق فكرى أباظه فى اللغة العربية والتاريخ والرياضة والجغرافيا وسائر المواد الدراسية شفيعاً له بين أساتذته . وكان يأخذ الدرجة النهائية فى الجغرافيا ، وهى ليست عشرين من عشرين عند مدرسه الإنجليزى ، وإنما هى ١٧ من ٢٠ فقط . وكان هذا المدرس يقول :

— إن درجة ٢٠ من ٢٠ لا تمنح إلا لله ، و١٩ للمسيح و١٨ لى أنا (المدرس) و ١٧ للطالب الممتاز !

وكان فكرى أباظه وقتئذ هو الطالب الممتاز .

* * *

وللشعر فى حياة فكرى أباظه جانب ملحوظ ، فقد كان — ولعله ما يزال — يقول الشعر وينظم الأناشيد الوطنية حتى دعى بين زملائه بالشاعر جرير ، وكان نشيده الوطنى فى المقدمة بين أناشيد ثورة ١٩١٩ . فقد أذاعه الوفد المصرى وقتئذ ، ووزعت نوتته الموسيقية فى أنحاء القطر ، وأنشدته الجماهير الثائرة . وهذا هو النشيد :

أبنـــاء الوطن هلموا وسيروا إلى الامـــام
ارفعـــوا الصوت قويا فالحر لا يضام ! !
أوادى النيـــل تطلع وفاخـــر بالأبنــــاء
بذلوا الدمـــاء فـــداء ففقـــدناهم شهـــداء
خدع الدخيـــل سكون وصمت طال مـــداه
قال الخضوع فصحنـــا لا . . لا . . لا . .
لجئوا للدين وظنـــوا أن التوفيق محـــال
فإذا الهـــلال صليب وإذا الصليب هـــلال

إلى آخر هذا النشيد وقد عرفت السلطة العسكرية مؤلفه ، وحاولت القبض عليه توطئة لمحاكمته ، ولكنه أفلت منها وكلأه الله بالأمن والسلام .

ولقد ظهر بولدوج أباظه فى طباعه الأصيلة فى تلك الثورة العارمة ،

ـفكان شجاعا قوى الدفاع ، جبار النشاط والهجوم .وقد هز الجماهير ــ بما كان وما زال ــ يكتبه فى الوطنيه ، والقضية المصرية . .

وكان أول مقال كتبه فى « الأهرام » فى ٥ ديسمبر عام ١٩١٩ بعنوان « خيـّال وصياد » . خرج فيه على تقاليد الأساليب الجدية الجافة إلى براعة الأسلوب الفولتيرى اللاذع ، وكان ردا على جريدة « التيمس » التى أشارت إلى شكوى المصريين من استئثار الإنجليز بالوظائف المصرية الكبرى . فكان له صدى قوى لفت الأنظار والأذهان . ثم أتبعه بمقاله الثانى « نطاط . . ورقاص . . » ونشر فيه هذه الشهادة :

« مستر فلان » .

« دخل السنة الأولى فى كاية أرمسترونج بنيوكاسل ، واشترك فى ألعاب المدارس كالجمباز بأنواعه . وله ميل للهندسة الملكية . قاد يخوتا ومراكب على الشاطىء الإرلندى ، وكان ضمن البحارة فى سباق كوينستون فى مركب حمولته ١٢ طنا . يجيد ركوب الخيل والنط والرقص والصيد وركوب الموتوسيكلات . . ميال للفلسفة » .

وكان صاحب هذه المؤهلات مدير أعمال مساعد بوزارة الأشغال . وقد أحدث هذان المقالان ضجة كبرى حتى أن جريدة « التيمس » نفسها علقت عليها ناصحة بالعدول عن تعيين الإنجليز من غير ذوى المؤهلات . . !

* * *

وعلى الرغم من صرامة نقده ، وسحر بيانه ، وقوة قلمه فيما يدبجه من مقالات سياسية واجتماعية لاذعة ، فقد أمضى هذه السنين الطويلة كاتبا عفاً نزيهاً ، وسياسياً مخلصاً نبيلا ، يبنى ولا يهدم ، ويصلح ولا يفسد ، ويعالج ليشفى الداء ، لا لزيد البلاء ، لا تغلبه المصلحة الخاصة على مصلحة أمته ، ولا يمالىء الحزبية على حساب وطنه .. وقد جمع مادبجه أثناء الثورة ونشره بجريدة « الأهرام » فى مجموعة قدم لها داود بركات بمقدمة قال فيها :

« إن هذا الضرب من الكلام هو الغريب المعجب المستحسن . وتساءلت هل منح الله بعض كتابنا هبة كهبة الأستاذ فكرى فيخرجوا الكتابة من التثاقل إلى الخفة ، ومن الجمود إلى الحركة ، ومن الانقباض إلى الانبساط ، ومن الجاف الممل إلى اللذيذ النافع .. »

ولما نشر المجموعة الثانية من تلك المقالات صدرها امير الشعراء أحمد شوقى بقصيدة جاء فيها :

لسن إذا صعد المنابر أو نضا « قلما » شأى الخطباء والكتابا
وتراه أرفع أن يقول دنية يوم الخصومة أو يخط سبابا
تلك الرسائل لو شكوت بها الهوى عطفت على أهل الهوى الأحبابا

* * *

ولقد دخل الصحافة هاويا ، ثم أصبح هاويا ومحترفا ، فجنت الحرفة على المحترف ، ولم تجن الهواية على الهاوى ، ولو أطلق لنفسه العنان لرأينا ما امر منه أيام زمان .. !

وقد التحق فكرى أباظه بالحزب الوطنى عام ١٩١٧ ، وانتخب فى اللجنة الإدارية عام ١٩٢١ . وهو من القلائل المخلصين الذين ثبتوا على مبادئهم ، وظل يحتل مكانته فى المعارضة ممثلا للحزب الوطنى طول مدة النيابة . وقد اختير عدة مرات نقيباً للصحفيين ، ومثل مصر والصحافة فى المؤتمرات الدولية وعرضت عليه الوزارة سنة ١٩٢٨ فاعتذر منها ، ثم فى سنة ١٩٣٧ ، فأعرض عنها ..

وقد سجل فكرى أباظه قصته فى الثورة المصرية فى كتابه « الضاحك الباكى » وقد امتد صيته ولمع اسمه منذ جهاده وكفاحه فى فجر هذه الثورة ، فكان الوطنى المخلص ، والسياسى البارع ، والبرلمانى اللامع ، والكاتب اللبق .

* * *

وفى حياة الأستاذ « بولدوج » قصص لم يكمل بعد ، ولعله لن يكمل ، فقد فات الأوان .. وهو « الزواج » !!

لم يتزوج فكرى أباظه طول حياته على الرغم من أنه يحب الأطفال ، ويحب الجنس اللطيف ، وتراه إذا رأى طفلا فرح به وهلل له ، وقبله ، وحنا عليه حنو الأب الرحيم على ابنه العزيز ، وإذا رأى بعض الجنس اللطيف هرع إليهن كما يهرع البولدوج إلى صاحبه أو صديقه ، وأخذ يجاملهن مجاملة لطيفة ، ويتحدث إليهن حديثاً ظريفاً جذابا . وهو يتقن الحديث الظريف الجذاب ، ولاسيما مع الجنس اللطيف !!

ولقد أحب فكرى أباظه حبا عذريا غير مرة ، وكانت له فى هذا الحب جولات وجدانية ، طالما ظهرت فى مقالاته التى كان يكتبها فى رحلاته إلى أوربا وقد اعترف أنه أحب كثيراً ، وفجع فى حبه عدة مرات وكان الخطأ من جانبه دائماً . وعند الهجر ، وبعد الهجر كان يتلقى من صديقاته هذا التصريح .

« إنك يا فكرى أعز من عرفنا ، وأعف من عرفنا ، وأوفى من عرفنا وإنك بولدوج الصديق الوفى ، الذى تلتهب النار فى قلبه ، وتحرق ضلوعه ولكنه لايغضب ، ولا ينبس ببنت شفة ، يصبر صبر أيوب على الهجران » .

وإذا كان فكرى أباظة يحب الجنس اللطيف ، ويصبر على دلال الجنس اللطيف فإنه يراهن فى صناعته ككاتب اجتماعى مادة اجتماعية أصيلة ، ويرى فى أحاديثهن ، وحوادثهن وأحوالهن موضوعات كتابية شائقة . . !

أما أحب شيء إليه قبل الجنس اللطيف وفوق الجنس اللطيف فهو « قلمه » الذى خاطبه مرة منذ ١٥ عاما ، فقال :

« أى قلمى . . !

« سواء أكنت قلماً رصاصاً ، أو بسطاً أوكوبياً ، أو أبنوساً أو باركرا أو « ايفرشارياً » أو ريشة ، فأنت أحب مخلوقات الله إلى وأعزهم على ، وأصدقهم ترجماناً ليدى وعينى ، واذنى وأصغرى » .

« عاشرتنى وصحبتنى طفلا وصبياً . وفتى قوياً ، وشاباً ألمعياً ، ورجلا أبياً .

« فى سن التاسعة قبضت عليك بأناملى ، فظللت عالقا بك وظللت عالقا بى

سنين طويلة . ولست الذى يتنكر للصحبة ، ويتمرد على العشرة ، وينسى فى ذلك التاريخ الطويل أسعد اللحظات ، وأتعس اللحظات . »

ثم يقول :

« هل تذكر يا قلبى أول مقال ظهر لى فى « المؤيد » عام ١٩١٢ بامضاء « عابر سبيل » وأول مقال فى دنيا السياسة نشر فى الأهرام بامضائى الصريح . . أتذكر أنى أخذت أقبلك عشرات القبلات حتى سرقوك منى ، فبكيت عليك بالدمع الهتون ؟! .

« وهل تذكر يا قلبى كيف كنت فى سنة ١٩١٩ نار الثورة المصرية وشعلتها ولهبها وحريقها ، وكيف سجلتها كتاباً من دمى وشراييني . . !

« أبكيك وأرثيك يا قلبى « الهاوى » ، وأترحم على أيامك ، فقد كنت فى عالم الهواية أجرأ قلم ، وأشجع قلم ، وأقوى قلم !!

أما أنت يا قلبى المحترف » . . . !!

« ... وددت لو أستطيع أن أختم حياتى وحياتك بالصراحة ، والشجاعة ، فأتحرر ، وتتحرر ، ونذهب معاً إلى ناحية بعيده عن حاجتى إلى الناس ، وعن حاجتك إلى الناس . فندون معاً للوطن العزيز ، وللأجيال القادمة أبرأ ، وأقوى ، وأخلص ما يصلح أن نختتم به حياة كاتب أصيل ، وقلم أصيل ! .

« وددت .. فهل تستطيع ؟!

« وهل أستطيع . . ؟! » . . !!

- ١٢ -

إيبسن

الدكتور

أمير بقطر

أمير بقطر

« إيبس » عند الفراعنة القدماء ، هو رمز العلم والحكمة والتفكير . .
وأبو قردان عند الفلاحين المصريين الآن هو صديق النباتات ، وحامى الخصب والخير والبركة . يدفع عن الزرع أذى الآفات . ويعيش فى الريف ، ويؤثر جواره ، ويتنقل من حقل إلى حقل ، ومن دسكرة إلى دسكرة باحثاً منقباً ، ويقف كالحارس المفكر ، ساكناً كالراهب المتعبد ، وهو ليس بالساكن بل ينظر بعينيه النافذتين ، ويبحث فى هدوء ، ثم ينقض فى هدوء أيضاً ويحمى الحياة من الموت ، والصحة من الداء ، والإنتاج من الذبول والجفاف . . !

وهو بالدكتور أمير بقطر أشبه . فهو عالم باحث مفكر ، يدفع أذى الجهل عن الجاهلين ، ويهدى إلى الشباب ثمرات العلماء النابغين ، ولكن « إيبس » لم يعرف الجامعات كما عرفها أمير ، ولم يخرج من مصر ويطف بالدنيا كما طاف ، ولم يتجمل بعواطف الجمال كما تجمل ، ولم يتذوق جمال العلم كما تذوق ، والعلماء إذا فقدوا الجمال المادى كان لهم من جمال العلم فتنة ، ومن جمال الروح ما يجذب النفوس والعقول . وقد قال مصعب بن الزبير :

— تعلم العلم ، فإن لم يكن لك مال كان لك مالا ، وإن لم يكن لك جمال كان لك جمالا ..!

والدكتور أمير بقطر تجمل بالعلم ، وأغرق فى هذا التجمل ، حتى صار جميلا محبوباً ، يجذب إليه الطلاب والأصدقاء والزملاء . . !

وقد تخرج أستاذاً فى التربية فلم يقنعه أن يكون مربياً عادياً بل أفنى شبابه فى العلم ، وسافر إلى أرقى الجامعات ، وحصل على الدكتوراه وتبوأ فى الأوساط

الجامعية الأجنبية مركزاً رفيعاً يفخر به كل مصرى . وانتدب مراراً للتدريس في جامعات أمريكا ، كما ينتدب مشاهير العلماء من أرقى الأمم ! !

* * *

وهو فى جمال نفسه وسمو روحه على خلق فاضل جميل .. عظيم التواضع . شأن العالم الحق ، كلما ازداد علماً ازداد تواضعاً – وقدكان قدماء اليونان يمثلون العالم المتواضع بالغصن الممتلىء ثمراً ، والجاهل المتكبر بالغصن المتجرد من الثمر . الأول ينخفض فى جمال ، بما يثقله من خير وثمر ، والآخر يرتفع فى الهواء ويشمخ بلا شىء فى الفضاء .. !

وقد كتب كثيراً وألف كثيراً . ويمتاز فى كتابته وتأليفه بالابتكار والتجديد ، وله اطلاع واسع على الآراء الحديثة ، والثقافات الجديدة ، أثرت فيما يتناول من موضوعات وما ينشىء أو يترجم من كتب . فألف « الدنيا فى أمريكا » ، و « كيف نتعلم لنعيش » و « الاتجاهات الحديثة فى التربية » و « الدانمرك ومدارسها » . وترجم « لا تخف » لأشهر علماء النفس فى أمريكا و « التربية فى الشرق الأوسط » و « نظام التربية فى أمريكا » . وقد أشرف على تحرير « مجلة التربية الحديثة » فكانت وما زالت سفيرة الآراء الناضجة فى التربية والتعليم . !

ومع إغراق أمير بقطر فى فنه ودراساته ، فله إدراك دقيق عميق للحب وللجمال المادى ، وله عاطفة رقيقة مرهفة منذ الصبا ، حدث وهو صبى فى مرحلة التعليم الثانوى أن شاهد رواية « روميو وجوليت » لأول مرة فى ملهى الشيخ أحمد الشامى المتنقل ، فتأثر لمصرع العاشقين ، وكان مدرس الإنشاء قد كلفه بكتابة موضوع فى معنى هذا البيت :

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعاند ما استطعت له عنادا

فلم يسعه إلا أن يعبر عن حزنه وآلامه لمصرع هذين العاشقين فى كراسة الإنشاء بدلا من الكتابة فى هذا البيت ، فكان نصيبه التوبيخ زائداً صفراً . .

ولكن هذا التوبيخ وهذا الصفر لم يقتلا مشاعره الجياشة ، ولا صرفاه عن الإجادة فى الكتابة حتى صار كاتبا بارعاً مجدداً .

* * *

وهو صعيدى الموطن ، ولكنه أقرب إلى أبناء الوجه البحرى فى طباعه ومزاجه . فنى أخلاقه إيناس ورقة ولطف ، وفى طبعه إحساس مرهف كسكان الشواطىء ، وقد امتد به الطواف فى بلاد العالم حتى زار جزائر « هاواى » بالمحيط الهادى . وإذا كان قد حزن وتألم لشقاء « روميو وجوليت » ، فقد اغتبط بما شاهد فى « هونولولو » من سعادة العشاق ، ووصال الأحباب ، وهناء الشباب بالشباب .

وقد ولد فى أسيوط ، ولكنه ليس مقتراً كالأسيوطيين ، فنقوده ليست له وكلما ملأ جيبه من جهاده فى الشتاء ، راح فى الصيف فأضاع ما جمع فى الطواف بأوربا وأمريكا ، مستشفياً أو مستزيداً من العلم والعرفان . . وليس فى الدكتور أمير بخل أو تقتير إلا على أصدقائه حين يمنيهم بصحبته فى رحلاته ، وضيافته لهم فى أسفاره ، ثم يخفى عنهم أوقات الأسفار ، ومواعيده فى المطار . . !

وبين الدكتور أمير بقطر وتلاميذه بالجامعة الأمريكية مودة وصداقة وعطف أبوى وأخوى كريم ، حتى بعد تخرجهم من هذه الجامعة ، فهو يعاملهم معاملة الوالد المرشد والأخ العطوف ، ولكنه على ما بينه وبين أبنائه وأصدقائه من رابطة ودية وصلات تفاهم وسلام ، يكاد يكون بينه وبين الجنس اللطيف حرب وخصام . فطالما أثارهن بكتاباته القاسية ، فتارة يكتب « الرجل أجمل من المرأة » وقد تحدته إحداهن ، فبعثت له تقول : « فلنتبادل ولنجرب » . . وتارة يكتب « شكوانا من المرأة » . وأخرى : « لا أحب رياسة المرأة ، ولا أريد أن أكون لها مرءوساً » .

على أنه أنصف المرأة حين مدحها إذا ابتسمت ، وحين أسى لها إذا بكت ، وبين ابتساماتها ودموعها نسب كبير ، طالما تورط فيه الدكتور أمير .

* * *

ويرى الدكتور أمير بقطر أن للتربية والتعليم وظيفتين : وظيفة التربية والزخرف وهو رقى إنسانى ، وشرف اجتماعى ، وذلك كما يقول عبد الملك ابن مروان لبنيه :

— يا بنى تعلموا العلم ، فإن كنتم سادة ، فقتم ، وإن كنتم وسطاً سدتم ، وإن كنتم سوقة عشتم . . !

ويقول بعض أدباء العرب :

— تعلم العلم ، فإنه يقوّمك ، ويسددك صغيراً . ويقدّمك ويسودك كبيراً ، ويصلح زينك وفاسدك ، ويرغم عدوك وحاسدك .

أما الوظيفة الثانية للتربية والتعليم ، فهى وظيفة عملية . الغرض منها إعداد الشاب لدخول ميدان الحياة ظافراً منتصراً يعمل بعلمه ، ويستفيد مما تعلمه ، ويأكل خبزه بالطرق الشريفة التى أرشده إليها العلم والتربية والتعليم ويصبح بما تعلمه وتهذب به وما حصله من العلوم عضواً عاملا فى المجتمع .

وإذا لم ينتفع المرء بعلمه وتعليمه كان هو والجاهل سواء . وقد قال أبو العلاء المعرى :

إذا كان علم المرء ليس بنافع ولا دافع ، فالخسْـر للعلماء

ولا فضل لإنسان يتقن العلم ، ويتفوق فيه على زملائه ، ويحصل أعلى شهادات ، ويتخرج فى أرقى الجامعات ، ثم إذا خرج لميدان الحياة ، لم يستطع أن يستخدم علمه أو ينتفع به فى الميدان العملى ، وهو أشبه فى هذه الحال بالكتب تحوى أنفس العلوم ، ولا تستطيع أن تفيد لنفسها شيئا . وقد قيل للشيخ محمد عبده فى أحد دروسه :

— فلان قد حفظ البخارى .

فأجاب رحمه الله :

— لقد زادت نسخة فى البلد ... !

وقد روى الدكتور أمير بقطر فى كتاب « كيف نتعلم لنعيش » حالة شاب انجليزى عرفه ، قد تلقى العلم فى أرقى معاهد انجلترا ، حتى كاد يكون كاملا أو كما يقول الإنجليز « All Rounder » فإذا تحدث إليك فى الصالون سحرك ببيانه وذلاقة لسانه ، وتدفق من فمه بحر زاخر من شعر ونثر ، مقتبساً من شيكسبير ، وملتون ، وديكنز ، واديسون وغيرهم . وخلب لبك بتمكنه من اللاتينية واليونانية .

وإذا نزل فى حلبة التنس ، قفز كالظبي ، وتحفز للكرة ، فلا تفلت منه إلا بأعجوبة .

وإذا نزل إلى ساحة الرقص ، تأبط ذراع أجمل فتاة ، وانساب بين الراقصين على نغمات الموسيقى بخفة ورشاقة ، وفتنة تدعو للإعجاب به والتحبب إليه . !

ولكن . . ولكن هذا الشاب المتعلم المثقف اللطيف الظريف المهذب المحبب إلى لاعبي التنس ، وهواة الرقص ، طويل الباع فى الثقافة والأدب والشعر ، لا يكاد يدخل ميدانا للعمل إلا ويخرج منه مطأطىء الرأس ، ولا يطرق باباً للرزق إلا ويجده مقفلا ، ولا يوظف اليوم حتى يفصل غداً ولا يزاول تجارة إلا ويقدم بعد قليل دفاتره خاسراً . ولولا أن أباه غنى ، ولولا أنه يعيش عالة عليه لاستجدى الأكف فى الشوارع ، وعجز عن شراء أدوات التنس ، وبذلة الرقص وعاش بائساً محتقراً ...

إن « إيبس » لا يريد العلم للعلم ، وإنما يريده للإنتاج ، وللنفع العام . وقد أنتج الدكتور أمير بقطر فى حياته العلمية المباركة ، فألف وكتب كثيراً ، وأخرج لميادين الحياة مئات الطلاب النابغين ، وحصل على تقدير علمى عالمى من جامعة كولومبيا بأمريكا التى تخرج فيها ، فأهدت إليه ميداليتها الذهبية فى مهرجانها العلمى الكبير ، الذى أقامته بمناسبة مرور مائتى سنة على تأسيسها .

***

وكان هو أحد خمسة عشر متخرجا فى هذه الجامعة اختيروا من مختلف الأمم . وكان فيهم « مونتجمرى » القائد الذى هزم الألمان فى الصحراء الغربية بمصر فى الحرب العالمية الثانية .

ولاريب أن تقدير عالم مصرى من هذه الجامعة العالمية الكبرى يسجل لمصر فى الأوساط الأجنبية شرفاً رفيعاً ، ويعيد إلى الأذهان ما كان لمصر من مجد علمى فى عهد الفراعنة يرمز اليه فى آثارها الباقية : « إيبس » إله العلم العظيم .

- ١٣ -

سبع البحر

يوسف السباعي

يوسف السباعى

« السمور البحرى » بتشديد الميم ، هو الاسم الأصيل لسبع البحر فى لغتنا العربية الفصحى .. يعرفه بهذا الاسم الخالدون بعد عمر طويل من أعضاء مجمعنا اللغوى ! . . وهو عند علماء الحيوان السابقين يدعى باسم « الجندبيدستر » وهو اسمه الأعجمى المعروف به قديماً فى بلاد القفقاز . . نصفه حيوان برى ، ونصفه الآخر حيوان بحرى ، ورأسه كرأس الإنسان ، وليس كرأس السباع. ووجهه مستدير فى سمن . . وأكثر مايرى هذا الوجه أحمر اللون ، لامن خوف أو حياء ، ولكن من نشاط وحركة بين البر والماء ، أو بين الأدب واتحاد الأدباء ..!

يعيش فى مصر بين المعجبين به ، والمقبلين على حديقته ، التى حوت عجائب الحياة والأحياء وطرائف القصص ، ومافيها من أحداث وأشخاص وطباع وأهواء .. وهو يحبس نفسه فى بركته كما يحبس الأديب نفسه فى صومعته ، ولا يرى إلا حيث يجتمع الناس فيلاطفهم ويلاطفونه ، ويداعبهم ويداعبونه ، ويجذبهم إليه بنشاطه حين يزورونه على شاطىء بحيرته بالجيزة ..!

ولسبع البحر زعنفتان ، كأنهما قدمان يمشى عليهما كما يمشى الإنسان . ولكنه يمشى متكئاً على صدره ، كأنما يمشى على أربع .. وله صوت لطيف ، ليس بالمنكر ولا بالمخيف ، وله خفة فى الروح وخفة فى الحركة مع رجاحة فى الوزن تشبه رجاحة « أم رتيبة » وخفتها فى حوارها الظريف فى ذلك الفيلم الفكاهى المعروف الذى حاز إعجاب الجماهير !

وليس سبع البحر مروعاً فى شكله ، ولا مؤذياً بطبعه كسبع البر .. وليس هو من جوارح الحيوان ، ولا آكلة لحوم الإنسان . فقد عاش فى بيئة طيبة ، وبين الأطيار والأزهار ، ومجالس الأدب ومحاسن الأفكار ، فهذبت هذه البيئة

من أخلاقه ، ورققت من طباعه ، وثقفت من أظافره ، وسوت من زعانفه ، فصار أنيساً لطيفاً ، خفيف الروح هادىء الطبع . ليس شرساً ولا مفترساً وليس عضواً « فى جمعية قتل الزوجات »[1] التى تضم عددا من الأزواج المتوحشين . . فهو يعامل أنثاه بعطف وصفاء ، كصفاء الماء . ولو لم يكن من ندوة الأصفياء[2] . . ولهذا سماه الناس « سبع البحر » ولم يسموه أسدا ، أو هزبرا ، أو غضنفرا ، أو ضيغما . أو « نائب عزرائيل » فيما يفترس من نفوس ، ويقبض من أرواح الملايين !..

ولعل الناس لو أحسنوا وأصابوا لسموه « يوسف السباعى » لأن بينهما شبهاً كبيراً فى الصفات ، واتفاقاً ظاهراً فى النشاط والدأب وسرعة الحركة . .

* * *

وإذا كان « سبع البحر » يسكن عالم البحر الواسع المدى ، المشهور بالقصص والأساطير عن عجائب الحيوان ، وصراع الطبيعة للإنسان ، فإن يوسف السباعى يعيش بملكته الروائية فى عالم واسع عجيب من الفن والخيال والواقع — عالم مملوء بأكثر مما عرف واشتهر عن البحر من عجائب ، عالم ليس بحرا محدود الأطراف ، ولكنه محيط المجتمع الكبير العميق المضطرب بألوان الحياة ، وغرائب الأحياء ، المزدحم بالعواصف والأنواء ، المتغير المتقلب المتلاطم الأمواج ، الساكن الهادىء فى غير سلام ، المنطوى على كثير من « خبايا الصدور »[3] وأسباب التنازع والخصام والذى يضيق على اتساعه وعمقه بمآسى « هذه الحياة » وضحايا الرجال والنساء « فى موكب الهوى » وضحايا الأمم والشعوب فى سبيل الوطنية والحرية ، وفى سبيل المحبة والجمال . . !

على أن البحر له عالمه وله مزاياه التى عنى بها طائفة من كبار الرواة والقصاصين كفيكتور هيجو فى كتابه : « الكادحون فى البحر » . ولو أتيح

---

(١) « جمعية قتل الزوجات » اسم لمسرحية ألفها يوسف السباعى ، ومثلها فيلم أم رتيبة ونائب عزرائيل .

(٢) ندوة الأصفياء جمعية أدبية فى القاهرة .

(٣) « خبايا الصدور » و « هذه الحياة » و « فى موكب الهوى » أسماء لقصص للأستاذ يوسف السباعى أشرنا إليها فى سياق الكلام من باب التضمين .

لسبع البحر أن يكون له لسان ينطق ، لأهاب بالسباعى أن يسبح بفنه بين أمواجه ، ففيها من القصص التاريخية ، والأساطير الإنسانية ما يبدع فيها قلم المبدع الروائى الأديب .

* * *

ولقد عنى يوسف السباعى فى قصصه القصيرة بالجانب الاجتماعى وحده ، دون الجانب التاريخى . واهتم فى بعض قصصه الطويلة بالجانب السياسى الماثل فى عهدنا الجديد . وهو فى كتابته للقصة عصامى مجاهد . . يريد أن يصل إلى الكمال فى سرعة وأن يجتاز الطريق إلى الهدف فى خطوات . وقد عودته دراسته العسكرية انتهاز الفرص ، والسبق إلى أحسن القواعد ليفوز بالنصر . وقد فاز بالنصر ، فيما ألفه وأجاده من قصصه الوطنية فى سنوات الثورة ، وفيما دبجه من قصصه الطويلة ، نذكر منها : « إنى راحلة » و « أرض النفاق » و « رد قلبى » و « بين الأطلال » .

وهو يجرب حظه هذه الأيام فى القصة التاريخية ، ذات الوقائع القومية البارزة وذات المجد الخالد ، والأحداث الكبرى التى أثرت فى مجرى التاريخ فى الشرق العربى !

وكتابة القصة التاريخية ، ليست عملا سهلا هينا . . بل هى أشق من كتابة القصة الموضوعة ، لأنها تحتاج إلى مجهود فنى خاص ، وإلى ثقافة تاريخية أصيلة وإحاطة شاملة بحياة العصر الذى تتناوله الرواية ، واستيعاب لأحواله وعاداته ودراسة للأشخاص والحوادث دراسة دقيقة . . ثم تحليل ذلك كله وهضمه ، وتمثيله فى فكر الكاتب ، وإخراجه فى القالب الفنى السليم الذى لا يطغى فيه الخيال على الواقع ، فيشوهه . . أو يتجرد فيه الواقع من الخيال الفنى فيخلو من جمال الفن ، بل يجب أن يمزج بين الاثنين ، حتى يستطيع الروائى أن ينقلنا إلى العصر الذى وقعت فيه حوادث الرواية ، كأننا نعيش فيه ، ونشهد أشخاصه وأحداثه ، ونرى فى متعة وروعة فنية أبطال ذلك العصر كما كانوا يعيشون ،

وكما كانوا يؤثرون فى الاحداث ويتأثرون بهذه الأحداث ، ويحدثون أثرهم فى المجتمع ، أو يغيرون مجرى التاريخ .

ولهذا استطاع شكسبير ، واسكندر دوماس ، وغيرهما من كتاب الرواية التاريخية ، أن يبنوا لأنفسهم مجداً شامخاً خالداً فى عالم الفن الروائى التاريخى ، امتازوا به عن كتاب القصص الموضوع ، والحوار الأدبى ، والحكايات المسلية التى لا تحتاج إلى ثقافة واسعة وخبرة فنية بقدر ما تحتاج إلى استعداد فنى ، وعلم وتدريب . . ولذلك فإن كتاب الرواية التاريخية أقل عددا وأكثر قدرة ونبوغا وأعظم مجداً وخلوداً . . .

* * *

وقد عرف يوسف السباعى منذ تخرج فى الكلية الحربية وأصبح ضابطا بميله إلى الأدب . . وليس ذلك بجديد على رجال السيف وقواد العرب ، فمنذ القدم كان منهم الكتاب والشعراء وأصحاب المعلقات . ولكن الجديد أن ميل هذا الضابط الأديب اتجه إلى القصص . !

والسبب فى ذلك يرجع إلى تلك البيئة الأدبية القصصية التى نشأ فيها وتربى فى أحضانها . . فهو ابن الاديب الروائى المرحوم محمد السباعى وقد قالوا : « ابن الوز .. أو ابن البحر عوام » : وكان السباعى الكبير كاتباً بليغاً ، وشاعرا معروفاً ، ومترجماً ممتازاً وقد كتب كثيراً من الفصول والقصص الأدبية والاجتماعية ، وترجم لطائفة من نوابغ الروائيين الروس والانجليز والفرنسيين ونقل رباعيات الخيام شعراً عن الأديب الإنجليزى « فتزجيرالد » . واشتهر بجزالة العبارة وبلاغة التعبير ودقة الترجمة .

ولكن يوسف تخصص فى كتابة القصة القصيرة والرواية الطويلة . وكان لعناية والده بترجمة القصص الأجنبية تأثير كبير فى نفسه زاده عناية بهذا النوع من الأدب منذ كان فى الرابعة عشرة من عمره ، فقد قرأ كل ماترجمه والده عن أساطين القصة الحديثة ، وتفتحت ملكته الفنية على ألوان بليغة من آثار نوابغ الروائيين الغربيين ! .

ولقد وجد والده فيه مالم يجده فى الكثير من شباب جيله . . وجد فيه حب الأدب ، والغرام بقراءة الأدب وإنتاج الأدب فقرت به عينه وارتاح ضميره . فقد كان السباعى الكبير ينعى على شباب جيله انصرافهم عن الأدب ، حتى قال فى بعض كتاباته :

« لقد مرت على أيام وشهور ، بل دهور وأعوام ، وأنا أبكى مصاب الإنسانية فى مصابى ، وأندب مابها من كوارث المحن وما بى ، وأضج لوعة وحنيناً ، وأنتحب حرقة وأنيناً ، وتارة أرغى وأزبد ، وأبرق وأرعد ، ولاأجد معونة آس ، ولا إسعاف مواس . . كلا ولا متعجب لى ولا متألم ولا متبرم ولا مستنكر . ولا مدح ولا قدح ، ولا استحسان ولا استهجان ، ولا بسط ولا قبض ، كأنى أهتف بكلماتى بين رسوم بالية وأطلال ، وأعكف على أصنام وأوثان . أو كأنى أضرب فى حديد بارد ، وأصيح فى واد ، وأنفخ فى رماد . . وكأنى مع هذا الجيل الأصم الوسنان ، كما قال القائل :

فما يَرتاح للمدح ولا يرتاعُ للذمِّ
كأنا إذْ سألناهُ وقفنا سائلى رسمِ

« وأصبحت حرفة القلم عندى ، بعد ما كان لها فى سالف الزمن من السرور واللذة ، كاسفة حزينة ، ناضبة مقفرة من الطرب والأنس ، بل من العزاء والسلوى ، وأصبح القلم فى يدى أشد بؤساً ومسكنة من المزمار فى يد الشحاذ المتسول . ترى نغمته أقرب إلى أنة الثكلى منه إلى رنة المسرور ، وأشبه بصوت النعى منه بصوت البشير . وكذلك صرير القلم فى يدى أشبه بصرير أعواد النعش . ولا عجب ، فإنما قلبى نعش لنفائسه يحملها من المهد إلى اللحد » !!

كذلك قال السباعى الكبير عن الأدب عند شباب ذلك الجيل . ولو أنه عاد إلى الحياة اليوم لوجد للأدب راعياً يرعاه ، وحامياً يحميه ، ومشجعاً يشجعه ، كما يرعى أمته العربية ويحميها ويشجعها على العمل لبلوغ أقصى درجات المجد والقوة . ولرأى مجلساً أعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ،

أنشأه ذلك الراعى العظيم جمال عبد الناصر ثم لرأى جيلا آخر غير الذى نعاه وبكى الأدب من أجله .. جيلا واعياً جديداً ، هو جيل هذه الثورة الجديدة ، يحب الثقافة والقراءة ، ويقبل على العلم والفن ، ويقدر الأدباء والعلماء والفنانين ويؤمن بمكانة الأدب فى توجيه الأمم ، ويعرف أثر القصة فى إصلاح المجتمع .

وقد أصبحنا فى عالم من القصة جديد ، يرسم خطوطها مجتمعنا الاشتراكى التعاونى الجديد ، وبين طائفة من القصصيين والروائيين الذين يعتبر الآن يوسف السباعى من المجيدين فيهم . وقد أتاحت له ملكته الفنية الأصيلة تفوقاً استحق التقدير ، وأسعفه الحظ الجميل بما حقق له أمنية الوالد ، وما لم يكن فى حسبان ذلك الوالد الأديب ، وما تطيب به نفسه فى عالم الأرواح ، وما يسر به من توفيق ونجاح ، وتقدم وفلاح ، يفخر به كل محب له من أبناء هذا الجيل ..!

— ١٤ —

ديك الشعر

محمد مصطفى الماحي



محمد مصطفى الماحي

حالى المقلّدِ لو قيستْ قلادتُه	بالوردِ قصرَ عنه الوردُ توريدا
لما تَطرّبَ هز العطفَ من طرب	ومد للصوت لما مدّهُ الجيدا
كلابس مِطرفاً مُرخ ذؤابتَهُ	تضاحكُ البيضُ من أطرافه السُودا
تقول هذا عميدُ الملك منتسباً	فى آلِ كسرى عليه التاجُ معقُوداً

لم يفتح الله على طائر جميل من مدائح الشعراء ، وأحاديث الأنبياء والعلماء ، وأقوال الرواة والأدباء ، كما فتح على الديك عند العرب ، وغير العرب ! .

ولم يتحدث النـاس عن منافع الطيور وعاداتها ومحاسنها ، كما تحدثوا عن الديكة بأنواعها : العربى ، والنبطى ، والهندى ، والحبشى ، حتى بلغ بعض القدماء فى ذلك الخيال وفوق الخيال .. فزعموا أن لله ديكا،عرفه تحت العرش فى السماء العليا ، وبراثنه فى الأرض السفلى ، وجناحاه فى الفضاء ، يطوى بهما المشرق والمغرب . فإذا ذهب ثلثا الليل ، وبقى ثلثه الأخير ضرب بجناحيه . ثم قال : « سبحوا الملك القدوس ، سبوح قدوس لا شريك له » ! . فعند ذلك تضرب الطير بأجنحتها وتصيح الديكة ، ويستيقظ الناس ، ويطلع الفجر!! ..

وإذا كان الخيال قد ذهب بالرواة فى مدح الديك كل مذهب ، حتى بلغ الأساطير ، فإن مما لا ريب فيه أن طعمه من أشهى الأطعمة وأنفعها . فقد روى الطبيب أبو على بن سينا أن للديوك منافع للعقل والبدن من ذلك أن لحمها يحسن الصوت ويكسبه قوة وصفاء ، ويزيد فى قدرة العقل على التفكير ، ومخها يمنع النزف الرعافى . ومرقة الديوك نافعة فى مرض الربو ، وتشفى آلام المعدة والأمعاء .

وقد آثر الناس الديك الهندى — أو كما يسمونه الدندى — على سائر

الديوك ، لأنه أكبرها حجماً ، وأجملها شكلا ، وألذها طعما . وإذا ذكر هذا الديك بين الأفراد أو الجماعات ظفر بالإعجاب والتقدير ، ودعى للمحافل والحفلات ، كما يذكر ويدعى لفضله ، وبلاغة بيانه ، وحلاوة لسانه « ديك الشعر الأستاذ محمد مصطفى الماحى » ! . .

فهذا الأديب الشاعر فى نسبته إلى ذوات الأجنحة أقرب فى شخصيته إلى الديك الهندى . فهو من أكبر الشعراء حجماً ، ومن أوجههم شكلا ، ومن أحسنهم ذوقاً وهنداما ! . .

وقد ولد فى ثغر قديم من ثغور مصر ، يقوم على نهر النيل ، وهو ثغر « دمياط » الذى فتحه المقداد بن الأسود سنة ٢٠ للهجرة أثناء الفتوحات الإسلامية .

أما الديك الهندى ، فقد ولد أيضاً فى ثغر قديم من ثغور الهند ، يقوم على نهر السند ، وهو ثغر « ديبل » . فتحه محمد بن القاسم سنة ٣٢٣ للهجرة وكان هذا القائد يحب الديكة الهندية منذ رآها فى أبهة شكلها ، وجمال منظرها ، وكبر حجمها ، حتى أن بعضها فى هذا الثغر كان حجمه يقرب من حجم النعام . ولعله هو الذى أهداها لثغر دمياط ، فكثرت تربيتها فيه وتناسلت ، وبارك الله لأهله فيما أنتجت من أبناء وأحفاد ! . .

* * *

وقد عرف الديك الهندى بين الطيور الداجنة بالسخاء والحب . وذلك أنه ينقر الحبوب ، ويحملها بمنقاره إلى دجاجته ورفاق حياته . ويحرص على إطعام دجاجته ويؤثرها على نفسه فى الكثير من الطعام . فإذا ظفر بشىء من الحبوب ، ودجاجاته غائبات ، دعاهن إليه ، وقنع منها بدون حاجته وقدم لها النصيب الأكبر ! ..

وكذلك ديك الشعر « الأستاذ محمد الماحى » فهو على الرغم من أنه دمياطى والدمياطيون مشهورون بحب الاقتصاد ، متهمون بالبخل والانطواء — كريم

غاية الكرم، سخى فى مآدبه غاية السخاء، اجتماعى يحب الناس ويحبه الناس. جوادبشعره فى كل لون من ألوان الشعر، وفى كل مناسبة من المناسبات الكبرى.

ولشعر الوجدان والحب فى ديوانه الكبير نصيب غير قليل يكاد يبلغ الربع أو يزيد!.

والحب فى مذهبه أنواع: حب الله فى مخلوقاته وأكوانه، وحب النبي محمد فى عظمته ورسالته الشريفة. وحب الأهل والولد فى رحمه ونسبه، وحب الرفاق والأصدقاء فى وفائه ووداده، وحب ما أبدع الله من الخلق، وسوى من بدائع الجمال فى الأطيار والأزهار والإنسان. كما قال فى قصيدته.

أنا لا أعرف الحياة سوى الحـ ـب بشتى ضروبه وافتنـانه

وهو يقدس الحب الوجدانى المنبعث من الإحساس بالجمال، ولا يجد غضاضة فى ان يعرف أنه كان فى شبابه محبا، وأنه فى كهولته لايزال قلبه يخفق بالحب ويهتز للجمال، فينظم فى حبه والإعجاب به ووصف آثاره فى نفسه ووجدانه بديع القصائد، وحلو الأشعار. لأن الاحساس بالجمال من طبيعة الشاعر، والحب من دأبه وجزء من حياته، بل هو على الدوام دأبه ووحى فنه وحياته. كما قال البارودى:

فليقل العاذلُ ما شاءه فالعشق دأب الشاعر المفلقِ
لو لم أكن ذا شيمة حرة لم أقرض الشعر ولم أعشقِ

☆ ☆ ☆

وقد حدث أن أقيمت لديك الشعر عدة حفلات تكريمية بمناسبة صدور ديوانه الجديد فى عدة نواد أدبية بالقاهرة، فقامت فى إحداها أديبة معروفة تتحدث عن مناقب شعره وفصاحته. وعرضت فيما قدمت من آراء لشعر الحب فى هذا الديوان، فزعمت أن الشاعر ليس محباً بالمعنى العاطفى. وأن حبه ليس حب شاعر عاشق صادق الحب، ولكنه حب شاعر فنان يجيد شعر الحب، ويبلغ به الذروة، وان لم يذق طعمه، ويمارس متاعبه وحرمانه.!

وما كادت تنتهى من هذا الحديث حتى هب « ديك الشعر » من مجلسه وانتفشت جوانحه كما تنتفش جوانح الديك الهندى حين يغضب ، وحدقت عيناه واحتدت نظراته ، واحمرت أوداجه وأذناه ، وكر إلى المنبر ، وأخذ يكر على هذه الأديبة كرا ، وينقر رأيها فى حبه نقراً ، ويكركر « كركرة » عالية ، ويصيح مدافعا عن إحساسه بالجمال وعشقه للجمال ، وما كان له فى شبابه من غرام بالحسان ، وفى كهولته من اعجاب بالدجاجات ، صور ذلك كله فى ديوانه أصدق تصوير ، وعبر عنه أجود تعبير !

* * *

ولا ريب أننا عرفنا « ديك الشعر » منذ قرأنا ديوانه الأول ، انه من أكثر الشعراء حبا للجمال بألوانه ، ومن أسخاهم بشعره ـ لا بنقوده ـ للدجاجات الفاتنات ، فقال فيهن وأبدع ، وصاح من أجلهن وأسمع ، وبلغ بحبه لهن ، وإعجابه بهن أنه صاح لثلاث دجاجات صيحة بليغة ، فنظم فيهن قصيدة واحدة . وهى قدرة تفرد بها « ديك الشعر » على سائر شعراء النسيب الذين لم يتغزلوا فى شعرهم إلا بدجاجة واحدة لا بثلاث دجاجات . وهونهم فى عجيب عرفناه فى ديكنا الدمياطى الهمام . الذى نظم فى الحب بليغ الكلام واثبت أن الحسن يزيد الإيمان فقال :

أبى لى الحب إلا حيرة العانى ... فهل معين على سهدى وأحزانى
لم أجن غير الهوى ذنباً ولو علمت ... نفسى بعقبى الهوى ما كنت بالجانى
لله فى كل شيء آية ، وأرى ... فى حسن وجهك معنى زاد إيمانى

وقد يصيح هذا الديك الشاعر فى الفجر ، لا كما تصيح الديكة البلدية ، بل يصيح بلغة عربية فصيحة ، وبشعر وجدانى بديع ، فيقول فى مناجاة الفجر :

يا فجرَ ليلىَ التى لم أهجعِ ... أين الرقادُ فقد نَبابى مضجعى
أيبيت قاسى القلب فيك مُنعماً ... وأبيت مضطرمَ الحشا والأضلعِ
يافجرُ صاحَ الديك وابيض الدجى ... ومزارُ من أهوى بعيدُ الموضعِ

وقد اعتدنا أن نرى النائمين يستيقظون على صياح الديك .. فما بال هذا الحبيب العجيب لا يتحرك ولا يستيقظ على صياح ديك الشعر العاشق الولهان ؟

ما بال هذا الحبيب لا يستيقظ ، ولا ينهض من فراشه مسرعاً إلى المحب الواله ليصلى معه صلاة الحب فى محراب الجمال ؟ !

ما باله حليف الفراش ، أسير الكسل ، ثقيل النوم ، ثقيل السمع ، بليد الشعور ، لا يحس ولا يهتز لهذا الشعر المؤثر الذى يهز القلوب ، ويذيب الصخور ، وتأسى له الطيور فى الأصائل والبكور ؟ .

هو نائم فى ملكوت آخر ، لا يحس فيه بملكوت الشعراء العاشقين ، ولا يسمع أصوات الديكة الوالهين وما لها من حنين ونشيج حزين . وهو قاس منعم بنومه ، لا يدرى — ولعله لا يريد أن يدرى — ما أصاب الشاعر المعذب بسهاده . أو لعله أصم أعمى لا يسمع ولا يرى خفقات قلب الشاعر التى وصفها بأنها تكاد ترى وتحس فى قوله :

خفقاتُ قلبي مُوشكاتٌ أن تُرى وتحسُّ منذ جَفوتَ فانظر واسمع

ولكن من أين له السمع والبصر ما دام من مدرسة « الصم البكم » أو من « معهد النور » بلا أمل .. !

* * *

وقد عرف الديك الهندى بالوقار فى مشيته ، والاتزان فى حركته ، والمهابة فى شخصيته ، وهو يؤثر التجمل والسلام ، ولا يقاتل ديكا من الديوك كما تفعل الديكة الأخرى . وإذا استثير ثار فى أبهة واحتشام ونفش الجوانح العظام ، ونشر ريشه فى جمال وانسجام ، وكركر « كركرة » يسمعها الصاحون والنيام .. !

وكذلك « ديك الشعر » وقور كل الوقار ، متزن كل الاتزان ، لم يعرف بالإسراف فى غضب ، أو التفريط فى حق الكرامة والأدب . وقد اتخذ التجمل ديدنه ، والوفاء صفته الأولى لمن عرفهم ومن لا يعرفهم ، كما اتخذ الحلم

والتسامح والصدق ، صفات يحرص عليها كل الحرص ، وهو إذا ناظر ففى احترام وإذا ناقش وجادل ففى أدب وسلام .

* * *

وإذا كنا نلقب الأستاذ محمد مصطفى الماحى بلقب « ديك الشعر » فلم نكن أول من نسب الديك إلى الشعر والشعراء ، فقد سبق للقدماء أن أطلقوا « ديك الجن » على الشاعر العباسى الكبير عبد السلام بن رغبان ، وكان معاصرا لأبى نواس ، وعمر حتى شهد وفاة أبى تمام ، وفضلوا رثاءه على رثائه ، ولكنه كان منطويا مغمورا لا يعرف فضله إلا كبار الشعراء ، ولم يتكسب بشعره ، فكان استغناؤه عن الملوك والأمراء سببا فى خمود ذكره . وقد مر أبو نواس بداره بحمص قاصدا مصر لامتداح الخصيب فاستخفى ديك الجن منه خوفا من أن يظهر لأبى نواس انه قاصر دونه ، فقصده أبو نواس فى داره وهو بها ، فطرق الباب واستأذن عليه فزعمت الجارية أنه بارح الدار ، فعرف أبو نواس مقصده . فقال لها قولى له اخرج ، فقد فتنت أهل العراق بقولك فى الخمر :

مورَّدةٌ من كفّ ظبيٍ كأنما تناولها من خده فأدارها

فلما سمع ذلك « ديك الجن » خرج إليه ، واجتمع به وأضافه . وقد دافع ديك الجن عن الحب كما دافع عنه « ديك الشعر » الأستاذ الماحى ، ودافع عن الإسلام ، ورثى الحسين وأهل البيت ، ومدح العروبة والعرب وأشاد بالوطن العربى كما فعل « ديك الشعر » فى وطنياته العربية ، وفى مدائحه النبوية ، وفيما رثى من أعلام العرب والإسلام .

والماحى اسم على مسمى ، فقد محا عن نفسه وسمعته كل ما يشين الشاعر العربى الكبير ، وأثبت مكانته فى كريم الشمائل ، وكفايته فى جميع ما تقلد من مناصب ، ومارس من أعمال .

وإذا قابلك فى طريق أو استقبلك فى دار أهدى إلى نفسك الغبطة والبهجة ، ورفع عنك ما تشعر به من هموم ، وبعث فى نفسك حب الحياة والرضا بالدنيا كما قال فيه صديقنا الأمير مصطفى الشهابى :

يا ماحياً لهموم القلب قد نسخت
آياتُ شعرِكَ آلامى وأتراحى
وأثبتتْ فى قرار النفس بهجتها
فاهنأ ، فانك أنت المثبت « الماحى »

- ١٥ -

زرقاء اليمامة

أمينة السعيد


زرقاء اليمامة
أمينة السعيد

أمينة السعيد

أمينة السعيد ، أو زرقاء اليمامة ، أو عرافة المصور ، أو اسألونى — تلك كلها أعلام على شخصية لطيفة واحدة ، امتازت بالنظرة النافذة ، والرأى الثاقب وكان لها من دراستها للمجتمع ماليس للكثيرات والكثيرين ، فإذا سئلت ، فجوابها عن دراية ورشاد ، وإذا كتبت فعن دراسة وسداد . . !

وقد درست أمينة السعيد فى الجامعة ، وحصلت على ليسانس الآداب ، ولكن دراستها للحياة الاجتماعية ، وخبرتها بالمجتمع وأحواله أعظم وأكثر تجارب ودروساً . وقد طافت بأكثر نواحيه ، واختبرت أغلب نواديه ، وعرفت ما فيها من مساوىء ومتاعب ، وما يشكوه الفرد والجماعة من الام ومصاعب . فإذا جلست تقول : « اسألونى » أو « نبين زين » أقبل عليها المئات والآلاف يسألونها فى شئونهم الاجتماعية ، فتجيبهم بمالا تسمو إليه فى صدقها حذام بنت الريان التى قال فيها الشاعر :

إذا قالت حذام فصدقوها ... فإن القول ماقالت حذام

وهى تسبق فى نظرها البعيد زرقاء اليمامة ، فقد قالوا « أبصر من الزرقاء » وهو مثل لجودة البصر ، وحدة الرأى والنظر . وكانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام ، أما أمينة السعيد فهى ترى الشىء من مدى ثلاث سنوات أو تزيد وقد نزعم أنه لو عاش النابغة الذبيانى لقال فيها هذه الأبيات :

فاحكم كحكم فتاة الحى إذ نظرت ... إلى حمام شراع وارد الثمدِ
قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا ... إلى حمامتنا أو نصفه فقدِ
فحسبوه فألفوه كما حسبت ... تسعا وتسعين لم تنقص ولم تزدِ
فأكملت مائة فيها حمامتها ... وأسرعت حسبة فى ذلك العددِ

فقد زعموا أن زرقاء اليمامة — وهى من قبيلة جديس — بين نجد واليمن — كانت جالسة فى جوار جبل ، فمر بها سرب من القطا ، فقالت : « ياليت ذا القطا ليه . . ومثل نصفه معه . . إلى قطاة أهليه . . إذن لنا قطا ميه » .

ولما قتلت قبيلة جديس قبيلة طسم هرب رجل منها إلى حسان تبع ملك حمير ، فأغراه واستجاشه ، فخرج فى جيش جرار يريد الانتقام من جديس ، فلما كان من اليمامة على مسيرة ثلاثة أيام صعدت الزرقاء سطح دارها ، فرأت جيش حسان وقد حمل كل جندى منه شجرة يستتر بها ، فقالت الزرقاء : « ياقوم قد أتتكم الشجر » فلم يصدقوها ، فقالت : « أحلف بالله لقد أرى رجلا ينهش كتفاً ، أو يخصف نعلا » فلم يصدقوها ، ولم يستعدوا حتى فاجأهم حسان بجيشه فاجتاحهم من ديارهم . . !

وزرقاء اليمامة من بلدة مسيلمة الكذاب ، أما أمينة السعيد ، فمن أسيوط التى سميت مدينة الذئاب فى عهد القدماء ، ولا نعنى أنها ولدت فى أسيوط ، ولكنها قضت فيها السنوات الأولى من حياتها . وقد قال علماء التربية إن هذه المرحلة من العمر هى أطبع المراحل للصفات والأخلاق ولكن أمينة شذت عن هذه القاعدة . فلم ينطبع فى نفسها ما انطبع فى الأسيوطيين من التقتير الذى يفوقون فيه الدمياطيين ، فهى بحبوحة كريمة فى غير إسراف . . !

وقد اخترت لأمينة السعيد « اليمامة » . وهى صنف جميل من أصناف الحمام ، ويسميه العراقيون الهوادى ، والمصريون اليمام . وهو طير وحشى غير مستأنس ، ظريف يميل إلى العزلة ، ويقطن فروع الأشجار ، وعروش النوافذ والديار ، ويسجع فى الصباح مع البلبل والعندليب والهزار .

ولقد استوحينا هذا الرسم من كتاب « وحى العزلة » لأمينة السعيد أو من كتاب « أوراق الخريف » وما فيها من وحشة ووحشية أو من الأمطار المنهمرة على قمم الجبال العالية العاتية فى شمال الهند حيث طارت أمينة

السعيد إلى تلك البلاد، وشاهدت من عجائب الدنيا، ودونت ما دونت من مشاهد وأفكار.

على أن أمينة السعيد ليس فيها من الوحشية ما فى اليمامة ولكن فيها من اليقظة وسرعة الخاطر ما فى هذا الطائر الجميل فقد عرفت أمينة فى مراحل حياتها، بالذكاء المتوقد، والتوثب والنهوض بجنسها اللطيف إلى المستوى الاجتماعى الرفيع. وهى فى المقدمة من الرعيل الأول الذى غزا كليات الجامعة وأثبت وجوده ونشاطه وتفوقه. وقد اعتصمت بجرأتها الأدبية فى مناقشاتها الجامعية فكانت أول من ناقش فى قاعات الجامعة رواية «مجنون ليلى»، ولم يثنها أن يقول القائلون فى ذلك الحين: «رحم الله الحياء» حين تناقش القدماء أشعار الحب والهيام . !»

وقد كانت أول من شجع الفتيات المصريات على ممارسة الألعاب الرياضية، وأول فتاة مصرية لعبت التنس فى ساحة الجامعة، وأول جامعية صارعت طويلا للدفاع عن كرامة الجنس اللطيف فى التعليم الجامعى. وأول من خلعت غطاء الرأس فى الجامعة، ولم تبال أن يطلق عليها الزملاء «أم الشعور» ! .

وقد ارادت زرقاء اليمامة — أمينة السعيد — ألا يقتصر جهادها وجهودها فى خدمة المجتمع وخدمة الأسرة العربية على ما تمارسه من حل مشاكل القراء، وما تدبجه من مقالات فى الصحف، بل شاءت أن تقوم برسالتها الاجتماعية فى ميدان القصة الواقعية التى تستمد موضوعها وأحداثها من جوهر الحياة، ومن صميم الواقع الذى يعيش فيه الناس، فأتت لنا من الواقع بما يفوق فى غرابته الخيال، وبما يكشف عن المحجوب من عيوب التربية، وأمراض النفس، ومتاعب الأسرة، لأن دنيا القصص هى دنيا الحياة، ودنيا التجارب والأحداث، وعالم الانسان الواسع الكبير.

والحياة أينما وجدت قصة . . حياة الأفراد قصة، وحياة الجماعات قصة، والإنسانية منذ بدأت الخليقة إلى الآن سلسلة من العجائب والقصص .

وقد كانت القصة فى الماضى تعنى بأحداث الملوك والعظماء والقواد والأبطال وكانت موضوعاتها ارستقراطية لا تعنى بحياة الشعوب وأحوال المجتمع ، حتى كان عصر النهضة وازدهرت الآداب ، وسادت الديمقراطية فاتجه الفكر الحديث إلى العناية بشئون الأفراد والشعوب ، وظهرت ألوان من القصص الاجتماعى تعنى بمشاكل المجتمع ، وتهدف إلى إصلاحه ، وتعمل لرقى أفراده وجماعاته . وتحارب الطغيان والرجعية والاستبداد وتدعو إلى العـــدالة والمساواة ، ورفع مستوى الأمة ، والسعى للوصول الى تحقيق مجتمع إنسانى أفضل .. !

ومن هنا كانت رسالة أمينة السعيد ككاتبة اجتماعية ، فقد عنيت بحياة الفرد وحياة الأسرة والمجتمع منذ ظهرت على مسرح الحياة العامة فأخذت تدبج فى الصحف آراءها السديدة ، وتروى من عبر الحياة ومآسيها ما ينبه الأذهان إلى ما فى حياتنا الاجتماعية من أمراض تحتاج إلى العلاج ، وإلى ما فيه من عيوب تحتاج إلى الإصلاح .

* * *

وقد امتازت هذه « الزرقاء » بسهولة العبارة وصفاء الأسلوب . وعذوبة النفس والروح فى كل ما تكتب ، كما امتازت باستقامة الخلق ودماثته ورقة الشعور ، وجمال الوجدان على الرغم من أنها ليست شاعرة تنظم الشعر الموزون ولكنها شاعرة فى أسلوبها الممتع ، شاعرة فى عطفها الكبير ، وحنانها الغزير على كل من يستحق العطف والحنان والإحسان .

ولعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إن أمينة السعيد أول كاتبة — بعد فقيدة الشرق « باحثة البادية » تهتم بالشئون الاجتماعية اهتماماً شخصياً متصلا بالحياة العامة ، بل لعلها أوسع مجالا من « الباحثة » فى معالجة الحياة الاجتماعية وما فيها من مشاكل منوعة لأن مشاكلنا اليوم لم تقتصر على المشاكل الاجتماعية المحدودة التى كانت بالأمس ، بل تعدتها إلى مشاكل نفسية، وإنسانية وشخصية وعائلية متعددة لم يكن يعانيها مجتمعنا العربى قبل تعدد مشاكله واتساع أحواله واشتراك المرأة

فى ألوان من الأعمال العامة مع اختلاف فى التربية والتقاليد فى جيلنا الأخير عن الأجيال الماضية !

وأستطيع أن أزعم أننى لا أعرف كاتبة عربية عنيت بأحوال قرائها ، وما يشعرون به من آلام الحياة ، كما عنيت هذه « الزرقاء » الرقيقة القلب ، الغزيرة العطف . فكم اهتمت بشئون قرائها اهتماماً شخصياً ، وكم بذلت من وقتها وجهدها ومالها للتخفيف عن البائسات والبائسين . وكم تعاونت فى هذا السبيل مع طائفة من الكرماء المحسنين ، وأنا أعرف لها عدة أمثلة فى هذا المجال . . !

فهى أمينة كاسمها ، سعيدة لقرائها ، زرقاء اليمامة فى صفاتها الرفيعة ، وإن شئتم المزيد فاسألونى ! . .

- ١٦ -

سنجاب

الدكتور ابراهيم ناجي

الدكتور ابراهيم ناجى (*)

قد بلونا الذكاء فى كل ناب ... فوجدناه صنعةَ السنجاب
حركاتٌ تأبى السكونَ وألحا ... ظٌ حدادٌ كالنار فى الالتهاب
خفةٌ روحا وخفةً جسما ونفساً ... وتراءى للطفه كالشراب
واشتهت قربهُ النفوسُ إلى أن ... خلتهُ عندها مُنَى الأحباب
لابسُ جلدة من الوبر النا ... عم يحكى بها نسيجَ السحاب
لو غدا — وهو ذو الذكاء — أديباً ... كانَ « ناجى » فى الشعر والآداب

وكذلك السنجاب خفيف الروح ، ذكى النفس ، سريع الحركة ، لطيف المنظر ، حسن الوبر ، حاد المزاج ، رقيق الإحساس ، ألوف لمن يأنس إليه شرود عمن لا يوائمه . يتعشق الحياة الحرة ، ويغرم بالحرية ، ويعيش للحب ، ويسكن رءوس الأشجار ، ولا يهيم إلا مع الأطيار . ولو صور إنسانا لكان شاعراً رقيقاً ، أو كاتباً رشيقاً ، أو محدثاً ظريفاً ، أو طبيباً أديباً ، جمع إلى علم الجسم والنفس فن الأدب ، وإلى قوة البيان ، براعة التبيان ، وإلى صدق الكشف صحة الوصف . ولما كان فى جمال نفسه ، وطهارة قلبه ، وصفاء روحه إلا النطاسى البارع ، والشاعر النابغ الدكتور ابراهيم ناجى .

والسنجاب يأنس بالأنثى ، ولا يطيق العيش إلا فى جوارها وهو يتبعها أينما سارت ، وقد منحته الطبيعة من شعره الجميل شعراً ، ومن لطف حركته مايستهوى ويرضى ، ويخف على النفس ، ويجذب الألباب . والشعراء مازالوا يستهوون الحسان بسحر البيان وحلاوة اللسان .

وقد كان للدكتور ناجى رحمه الله فى ذلك طبع أصيل ، وماض فى الحب

(*) هذا المقال كتب فى حياة المرحوم الدكتور ابراهيم ناجى ووافق على رسمه .

طويل . وقد عشق منذ الصبا ، وتغزل فى فجر الحياة ، وقال وهو فى الخامسة عشرة .

كلانا عليلٌ فلا تجزعى ودمعك تَسبقه أدمعى
وإن كان بين ضلوعك نارٌ فنار المحبة فى أضلعى
وإن كان نجم هنائك غاب فنجم هنائى لم يطلع

وكانت سن حبيبته وقتئذ لاتزيد على سنه ، وكانت هذه الأبيات باكورة أشعاره ، وأول ما خط فى سجل الحب والمحبين . وقد دارت الأيام ، والتقى بهذه الفتاة فى كهولته فارتجل لها هذه الأبيات :

ذهب الشبابُ فجئت بعد ذهابه تُذكين ما أطفأته بيديكِ
لاتدمنى نظراً إلىَّ فوالذى جعل الهوى قدَرًا على كفَّيكِ
ما تلتقى عينى بعينكِ لحظةً إلا رأيت «صباى» فى عينيكِ

فالحب فى حياة المرحوم ابراهيم ناجى قد نشأ معه ، أو هو نشأ مع الحب أو إن حياته نشأت وشبت وترعرعت بالحب طول حياته يغمر فنه ويطغى على نفسه ، ويسيطر على كثير من وقته ، ويبدو صورا بديعة فى أشعاره .. قل أن يوجد مثلها فى غزل الشعراء .

ولقد افتن فى معانى الهجر والوصل، ووصف ليالى الغرام وأحوال الحبيب وابتدع فى ذلك مالم يسبقه إليه الكثيرون من شعراء الجيل الجديد الذين يعد فى الطليعة بينهم .

والشعر عنده — كما قال — :

« نافذة تطل على الحياة ، ويشرف منها على الأبد ، وهو الهواء الذى يتنفسه الشاعر ، والبلسم الذى يداوى به جراحه » .

وهو يقول — كما قال أمير الشعراء أحمد شوقى فى الحب — إنه قضاء وقدر ، وإنه كالحياة والموت ، لاحيلة للإنسان فيهما ، فكما أننا نرزق الحياة كرها ، وتسلب منا بالموت كرها ، فكذلك الحب لاحيلة للمحبين فيه ، ولكنه قد يشتد

فلا يكون حياة كله ، بل قد يكون عند ذوى الإحساس الدقيق موتا كله ، أو فترة من الحياة صغيرة لاتلبث إلا ريثما تقام ليلة عرسه ، ثم يقبل الصباح فإذا الأفراح أحزان ، وإذا السعادة شقاء . وإذا العرس مأتم ، ويظل مأتماً طول العمر ، لايجد منه مفراً ولامهربا ، كما قال :

يا غـــراماً كان منى فى دمى قدراً كالمــوت أو فى طعمه
ماقضينــا ساعة فى عـــرسه وقضينــا العمـــر فى مأتمه
ليت شعـــرى أين منه مهربى أين يمضى هارب مـــن دمه

ولعل أعظم ماقاله فى الحب « ملحمة الخريف » التى ختم بها ديوان « ليالى القاهرة » .. وفيها من المعانى المبتكرة ، والأخيلة البارعة مازاد فى ثروة الشعر العربى . . !

* * *

وإذا كان السنجاب خفيف الروح ، سريع الحركة ، ظريفا لطيفا ، فإن الدكتور إبراهيم ناجى كان فى حياته أخف منه روحا وأسرع حركة ، وألطف نفسا ، بل لايكاد يكون بين شعراء الجيل الجديد من هو أخف منه روحا ، وأصفى نفسا ، وأحلى رواية . وله من النوادر الطريفة والبوادر اللاذعة ما أصبح من أمتع مايروى فى أدب الفكاهة أو فكاهة الأدب . !

ومن ذلك أنه لما كان بانجلترا يستزيد من دراسة الطب دخل أحد المستشفيات ، وكانت رئيسة الممرضات تضطهده لأمر يعلمه الله ، ولا يعلمه ناجى ..

وكان من عادتها أنها تسلى المرضى ببعض دمى تصنعها من الورق المقوى ، فشكاها إلى رئيس الأطباء ذات مرة ، فحقدت عليه ، وأرادت أن تكيد له على طريقتها ، فقدمت إليه بعد ذلك دمية هدية له فى شكل .. « حمار » !! فقال لها شاكراً :

« أشكرك كثيرا على هذه الهدية وسأفكر فيك كلما رأيت حمارا ! » فتناقل القوم هناك هذه الفكاهة مدة طويلة .. !

وحدث أن أحد الأطباء انتقل إلى المستشفى الذى كان يعمل فيه الدكتور ناجى . وكان هذا الطبيب مغرورا بنفسه . وذات يوم قال له أحد الأطباء الزوار : « إنك يا فلان كنت فى المدرسة أكبر منى ومن زملائى ، وكنا نقول لك ياعمى ! .. »

فابتدره الدكتور ناجى فورا :

— حضرته كان فى المدرسة « عامى » ، وفى الطب « أمى » ! ..

وكانت نكتة لاذعة انتقم بها من غرور ذلك الزميل . وكان الدكتور ابراهيم ناجى مع سرعة بديهته، وقدرته على ابتكار النكتة البارعة ، والنادرة المستملحة ، من هواة جمع النوادر والفكاهات ، وكانت عنده مكتبة تجمع الكثير منها فى جميع اللغات . !

ومن أطرف ما يروى أن المعهد البريطانى بالقاهرة دعاه مرة لإلقاء بعض المحاضرات ، فوجد عند هذا المعهد سجلا خاصاً به ، دونت فيه حياته الطبية والأدبية ، وجاء فى السجل هذه العبارة : « هوايته المفضلة جمع النكت » ! .

والواقع أنه رحمه الله كانت له هواية لا تفضلها هذه الهواية ، وهى لعبة الشطرنج ، فقد كان من أبرع لاعبيها ، وقد ألف فيها كتاب « كنانة الشطرنج العصرى » بالاشتراك مع صديقه الأستاذ جبرائيل نصره وله غير هذا الكتاب فى الفنون الأخرى : « مدينة الأحلام » ، وهو ديوان شعر أصدره قبل « ليالى القاهرة » ، وكتاب « علم النفس » ، و « كيف تفهم الناس » ، و « رسالة الحياة » و « عالم الأسرة » . وأصدر مجلة « حكيم البيت » عدة سنوات .

وكان أظرف ماتراه حين يجتمع بصديقه الشاعر أحمد رامى الذى كان يحبه ويقدره . ومن طرائفهما أنهما كانا سائرين مع صديقهما الأديب «طاهر لاشين» بعد أن شيعوا جنازة فى الإمام الشافعى ، فقابلوا صديقهم الأستاذ عبدالحميد شكرى

فقال له رامى :

« انت فيك يا عبد الحميد صفات كثيرة من صفات الله ! »

فقال له عبد الحميد :

ــ مثلا . . ــ فقال رامى :

ــ أنت فى كل مكان . . !

فقال ناجى :

ــ وأنت لا تسأل عما تفعل . !

وقال طاهر لاشين :

ــ وقديم لا تموت أبداً . . !

* * *

وكان للدكتور ابراهيم ناجى صلة أدبية بناظر مدرسته الابتدائية منذ كان تلميذاً بها . . وكان هذا الناظر يعجب بنجابته ويطارحه الشعر . ودارت الأيام وتخرج طبيباً وعين فى مستشفى السكة الحديدية .

وذات يوم زاره الناظر ، وأراد أن يقتحم مكتبه ، فمنعه الجندى الواقف بالباب ، فكتب الناظر ورقة وبعث بها مع هذا الجندى إلى ابراهيم ناجى ، وإذا بها هذا البيت الطريف :

صادٍ ببابك يا أهل الوفا وَقفا قد عاقه عنك « نطع » واقف « وقفا » !

فضحك ابراهيم ، وأسرع إلى استقبال ناظره القديم الظريف من الباب واعتذر له من وقوف هذا « القفا » على بابه . . ! !

- ١٧ -

هدهد سليمان

أبو شوشة

محمود تيمور

محمود تيمور

أبو الربيع . . وأبو القصص والأخبار . . وأبو روح . . وأبو ثمامة . . وأبو عبادة !.. تلك كلها كنية الهدهد عند العرب ، وهى كلها تدل على أحواله وعلى أوصافه . وتكاد تكون هذه الكنى لمؤلف : «أبو شوشة» و «أبو على عامل أرتست» و «أبو الهول يطير» فهو فى كتاباته الروائية الغزيرة ، ومؤلفاته المنوعة الكثيرة ، ربيع فى جمال إنتاجه ، واختلاف أشكاله وألوانه . وهو أبو القصص العربى ، فقد أنجب منها أبناء وأحفاداً وأسباطا ، كانت «وثبة» جديدة فى تقدم القصة العربية ، وزحفاً قويا لفتوحات حميدة فى مسرحنا العربى .

وقد قالوا عن الهدهد إنه ذو بصر قوى ، وبصيرة نافذة ، وكان راوية سليمان الحكيم ودليله على الماء . فقد ميزه الله عن الطير بأنه يرى الماء فى باطن الأرض وهو طائر فى الجو ، وأنه روح ورحمة لمن يرافقه .

وكان سليمان عليه السلام يعتمد عليه فى رحلاته ، يطلب الماء به ويعرف أخبار الملوك والأقوام . وقد تفقده يوما فلم يجده ، وقلق لغيبته ، وكان قد سافر مع جنده فى رحلة من الشام إلى اليمن . . «قال الراوى» فتجهز سليمان ، واصطحب من الإنس والجن والطير والوحش جمعا كثيرا ، وارتفع فى الجو على بساطه الواسع ، وكانت رحلة جوية جميلة و «سلوى فى مهب الريح[1]» !

وسار بهم البساط فوق المدن والبحار ، واجتاز بهم الصحارى والجبال حتى وافى صنعاء ، فرأى أرضا تزهو بالنبات والأزهار وقد كساها الربيع ثوبه الساحر البديع ، فنزل سليمان ومن معه فانتهز الهدهد هذه الفرصة ، وارتفع

---

(١) «سلوى فى مهب الريح» اسم قصة لمحمود تيمور .

فى الجو ، فلمح عن بعد بستانا جميلا ، فطار إليه ، وحط فيه . وكان اسمه « يعفور » ، فلقى فيه هدهداً من هداهد اليمن ، فتقدم إليه ودار بينهما حوار طريف .

قال هدهد اليمن :

ــ من أين أقبلت وماذا تريد ؟

فقال يعفور :

ــ أقبلت من الشام مع صاحبي سليمان بن داود . وأريد أن أعرف لمن هذا البستان ؟

قال له الهدهد اليمنى :

ــ ومن سليمان ؟

فقال يعفور :

ــ هو ملك الجن والإنس والطير والوحش والريح !

وذكر له عظمة ملكه وما سخره الله له . ثم سأله يعفور :

ــ ومن أين أنت ؟

قال هدهد اليمن :

ــ أنا من هذه البلاد ، وصاحبتى « الملكة بلقيس » !

ووصف له فخامة ملكها وكثرة جندها . ثم قال له :

ــ فهل أنت منطلق معى لتنظر ملكها ؟

فقال يعفور :

ــ أخاف أن يتفقدنى سليمان ، فلا يجدنى .

فقال اليمنى :

ــ إنه ليسر صاحبك أن تأتيه بقصة عن هذه الملكة العظيمة وما أتاه الله عليها من ملك وجمال .

فمضى معه هدهد سليمان ، ورأى من أبهة « بلقيس » وعظمة عرشها ما بهره وفتنه . ثم عاد فى الغروب إلى سليمان ، وكان قد تفقده فلم يجده ، فعزم على تعذيبه ، ولكنه قص عليه « قصة بلقيس » فشفعت له عند مليكه ، وكانت قصة خالدة على صفحات التاريخ .

* * *

وكذلك كان الهدهد أشهر قصاص فى الزمن القديم ، وأشهر من روى عن حواء وربات العروش . . وقد شاركه فى ذلك محمود تيمور فى زمننا الحديث ، فقد قص عن ملكات التاريخ ، وروى عن حواء الخالدة وقلوب الغوانى ، وحوريات البر والبحر ، وكتب «كليوباترة فى خان الخليلى » وروى للناس حياتها فى القرن العشرين ، وقربها إليهم ، فعرفوها ولم يمتطوا فى ذلك بساط سليمان الحكيم .. !

* * *

والهدهد ذو بر ووفاء .. وهو عطوف ودود . !

حكوا عنه أنه إذا شاخ أبواه حمل الطعام إليهما وجعل يزقهما كما يزق صغاره . وأنه إذا غابت عنه أنثاه لم يأكل ولم يشرب ، ولا يقطع الصياح حتى تعود . وزعموا أن تاجه على رأسه دليل البر والوفاء بأبويه فقد ماتت أمه فى الزمن القديم ، فحملها على رأسه حتى واراها فى التراب فكافأه الله بتاج من الريش يزدان به ، ويكون رمزاً باقياً للبر البنوى والوفاء الجميل .

ولو كافأ الله محمود تيمور على وده وعطفه ووفائه وبره بذوى القربى والغرباء لألبسه عدة تيجان . ولكن حسبه تاج الأدب الرفيع .

وهو أديب النفس ، أديب الخلق ، مبسوط اليد ، يكاد يجود بما معه ، محب للضيافة . ولو استطاع لاستضاف الناس جميعاً ، ولا يفرق فى ضيافته

بين الشيخ شوقى أمين ، ورجب أفندى ، أو الشيخ عفا الله ، والحاج شلبي[1] أو زكى طليمات وابن جلا وطلاع الثنايا . ويفوح من داره على الدوام « عطر ودخان » ، وهو أكرم من هدهد سليمان ، فقد حكوا أنه استضافه يوما هو وجنوده ، فقال له سليمان :

ــ أنا وحدى ؟ !

فقال الهدهد :

ــ بل أنت وأهل مملكتك فى جزيرة كذا !

فحضر سليمان وجنوده من الإنس والجن والطير والوحش ، فطار الهدهد وغاب قليلا ، ثم عاد ومعه جرادة ، فذبحها ورمى بها فى البحر . وقال لسليمان :

كل يا نبي الله أنت وأهل مملكتك ، من فاته اللحم ، لم يفته المرق . . !

فضحك سليمان وجنوده ضحكا كثيراً .. وفى ذلك قال الشاعر العربى :

جاءتْ سليمانَ يوم العرض هدهدة ... أهدت له من جرادٍ كان فى فيها
وأنشدت بلسانِ الحال قائلةً ... إن الهدايا على مقدار مُهديها
لو كان يهدى إلى الإنسانِ قيمتهُ ... لكنتُ أهدى لك الدنيا وما فيها

* * *

ولقد تناول محمود تيمور فى قصصه ومسرحياته عالم الحب والمحبين إلى ماتناوله من شئون المرأة ، وشئون الاجتماع والحياة الإنسانية فى كثير من صورها وأطوارها . وله فى قصص الحب ومسرحياته : « عنترة » و « شباب وغانيات » ، و « نداء المجهول » ، و « إلى اللقاء » و « أيها الحب » ، و « قلب غانية » ، وغيرها .. ولكن هل تعرف : من هو أحب العاشقين إليه ؟ » . لقد سئل هذا السؤال مرة فأجاب :

(١) الشيخ عفا الله ، ورجب أفندى ، والحاج شلبى ، وابن جلا « وعطر ودخان » : أسماء قصص لمحمود تيمور ، أما الشيخ شوقى أمين ، وزكى طليمات فمن أصدقائه .

— دعانى هذا السؤال إلى أن أجيل الطرف فى ذلك الحشد الزاخر عن هتف بأسمائهم التاريخ ، وسجل روائع غرامهم بين صحائفه الخالدات ..

فهنالك « روميو » الذى يمثل المأساة الدامية فى الحب ، والذى يعد أروع مثل للفداء

وهنا « قيس » صاحب « ليلى » الذى يمثل العشق العذرى ، أو الحب المجنون .

وثمة « انطونيو » ذلك الذى كان أحرص مايكون على الاعتصار والاستمتاع ، ما وجد إلى ذلك السبيل .

وهل ننسى « عمر بن أبى ربيعة » الذى يمثل الحب الثرثار ، ينشد فيه طيف المرأة أيا كانت ؟

وفى التاريخ قريبه وبعيده شكول وأفانين من العشاق والمحبين يختلفون فى شخصياتهم ، ويتباينون فى مهوى أفئدتهم .

فأى هؤلاء أحق بالإيثار ؟ وأيهم أولى بالإشادة والإعلاء ؟
من منهم أجدر بأن يتسلم راية البطولة فى ميدان الآهات والزفرات ؟
جعلت أعرض الأسماء ، وأتعرف الشخصيات ، وأتسمع المناجيات وبغتة وقفت .

فقد تخايل لى شبح جبار القامة ، قوى العضل ، وافى الجسمان ،
ولقد راح يتقدم منى متزن الخطا ، عليه سيماء الترفع والعزة تتراءى منه جبهة عريضة تتدلى عليها خصلات شعر أسحم غزير فراعنى منه أنه عارى الجسد ، إلا من جلود تستر بعض أوصاله !

لاح لى هذا الشبح الجبار الكريم العنصر ، وعلى وجهه ابتسامة وجعل يبعث إلى نظراته ، وهو يعبث بلحيته المشذبة ، كأنه يقول لى :

— أين مكانى بين من تخيرت من صفوة العشاق ؟

– حقا . لست أدرى كيف فاتنى أن أذكره . . وهو البطل الأول ، والزعيم المقدم ، لادفاع ولانزاع ؟

إنه فرد فذ ، يعدل بقصة غرامه ألوف المغرمين على تعاقب الأحقاب .

إنهم حين يوزنون به يبدون أقزاما ضئالا ، هيهات أن يقوم لهم حساب بجانب عملاق العماليق .

وكيف لا يكون ذلك وهو الرأس ، وهم الأذناب ؟

وكيف يقوم فى ذلك خلاف وهو الجذع الركين ، وهم الأفنان المهازيل ؟

هو الرائد السباق . .

هو واضع أس الحب لبنى البشر .

هو من شرع ذلك الشرع ، وسن ذلك القانون . !

هو من عبد الطريق لكل سالك بعده ، متأثرا خطاه . .

هو الذى تلاقت فى قلبه كل أفانين الحب ، من عذرى ، وصوفى ، وجسدى ! .

هو الذى بذل فى سبيل حبه أكبر فداء لايملك أن يبذله غيره .

لولا حبه هذا لما كان للبشرية كيان . !

لقد أحب فى دنياه الصغيرة التى لم تكن تحوى إلا قلبين اثنين ، فخلق من هذه الدنيا المحدودة عالما رحيب الأكناف يزخر بالوف المحبين !

لكأنه قد أراد أن يجعل الحب حقيقة خالدة يتوارثها خالف عن سالف ، فألقى الغراس ، وبذر الحب . وأحسن السقيا . . وظل يتعهد الزرع حتى نما واكتمل ، وآتى أكله ، ومازال يؤتيه أطيب الثمرات .

ربما كان فى ذلك على خطأ ، وربما كان على صواب !

مهما يكن من رأى ، فما كان فى وسعه أن يعدو ما فعل . .

وهل كان فى مستطاعه أن يتطهر من شوائب الخطيئة ، وهو ابن طين وماء ؟ !

ما يسوغ لى الآن ، وقد وضح لى ذلك الوجه الكريم ، إلا أن أجعله هو موقع الاختيار .

ذلك الذى باع النعيم العلوى سعياً إلى اكتناه سر الحياة الأزلية على ظهر هذه الأرض . !

ذلك الذى هو صاحب التجربة الأولى فى الحب ، وصاحب القدح المعلى فى الفداء .

ذلك هو أبو البشر .. آدم .. !

غفر الله له ، وأعاننا على احتمال ماتركه لنا من ذلك التراث الخالد الجسيم ،

- ١٨ -

بنت الشاطئ

عائشة عبد الرحمن

عائشة عبد الرحمن

بنت الشاطىء — وقبل ذلك كانت ابنة الشاطىء — كالبطة مائية ساحلية تهوى الأسماك وتهواها الأسماك ، وتعيش فى حجاب من اسم مستعار ، منذ درجت فى مدارج العلم والأدب ، ومنذ تعشقت فن الكتابة ، وأخذت تساهم فى الحياة العامة وتكافح فى سبيل الإصلاح الاجتماعى ، وتدافع عن قضية الفلاح المصرى .

وقد ولدت فى دمياط من أب ريفى وأم دمياطية ، فهى حضرية شاطئية ريفية ، وقد أحبت الريف ، ودرست حياته ، ووقفت على علله ، وألفت فيه كتباً ، وأطلقت صيحاتها العالية فى وجوب ترقيته ، ونجدة أبنائه الفلاحين المساكين ، وبناته الريفيات البائسات .

ولقد ناشدت عائشة عبد الرحمن الحكومة تارة ، والإقطاعيين من أصحاب المزارع تارة أخرى أن يعنوا بالمنتج وهو الفلاح كما يعنون بالأرض ، وكما يعنون بالمواشى ، وهتفت بوجوب علاجه من أمراضه كما يعالج الإنتاج الزراعى من آفاته ، ولكن هتافها طالما ذهب سدى فى العهد البائد :

« سياستنا الزراعية معكوسة الأوضاع . تعنى الحكومة ويعنى الإقطاعيون بالإنتاج دون المنتج » .

هكذا قالت بنت الشاطىء ، ولقد صدقت فيما قالت فقد كنا فى الماضى لا نجد إلا استغلالا للفلاح ، وإهمالا لحياته الصحية والاجتماعية . والحكومات والأحزاب على اختلافها سارت فى هذا السبيل كالسلحفاة ، لا هى نشطت لإصلاح الريف ، ولا هى استجابت إلى نصيحة « البطتين » فى تلك الأقصوصة العجيبة التى زعموا أنه كانت هناك عين من الماء ، فيها بطتان وسلحفاة . وقد عاشت

ثلاثتهم عليها . ثم حدث أن نقص ماء هذه العين ، فلما رأت البطتان ذلك قالتا إنه ينبغى لنا ترك ما نحن فيه ، والتحول إلى غيره ، فلما ودعتا السلحفاة ، قالت لهما : « إنما يشتد نقصان الماء على مثلى ، لأنى لا أعيش إلا به فاحتالا لى واذهبا بى معكما » .

فقالت البطتان : « لا نستطيع أن نفعل ذلك حتى تتعهدى لنا أننا إذا حملناك ، فرآك أحد ، فذكرك ألا تجيبيه » .

فقالت : « نعم ، ولكن كيف السبيل إلى ما ذكرتما ؟ »

قالت البطتان : « تعضين على وسط عود ، وتأخذ كل واحدة منا بأحد طرفيه ، ونطير بك فى الجو » .

فرضيت السلحفاة ، وطارتا بها فرآها الناس فقال بعضهم لبعض : « انظروا إلى العجب . . سلحفاة بين بطتين تطيران بها فى الهواء » فأجابتهم السلحفاة : « رغماً لأنفكم أيها الناس » ! . فسقطت على الأرض وتحطمت . . !

وكذلك الحكومات والإقطاعيون فى مصر كانوا كهذه السلحفاة التى لم تستمع إلى النصيحة ، فكان جزاؤهم التحطيم . ولقد ظل الفلاح يعانى هذه السياسة الزراعية الخاطئة ، ويحمل شقاءها ويرزح تحت ظلمها وظلامها حتى ضجر ، وتهيأت نفسه للآراء الثورية . واستقبل عهدنا الجديد ، عهد الثورة ، بالغبطة والتأييد ، وكان فيه نجاته من الاستغلال والمستغلين وتحقيق آماله فى العزة والكرامة والتملك .

ولقد أنذرت بنت الشاطىء بهذه الحال منذ كتبت عن الريف المصرى سنة ١٩٣٦ ، وعن « قضية الفلاح » سنة ١٩٣٩ ، وعن مأساة « سيد العزبة » . ومنذ نالت الجائزة الأولى فى المباراة الرسمية لحكومة على ماهر على موضوعها « ترقية الريف اجتماعيا » .. وقد صورت حياة الفلاحين والفلاحات الجياع الحفاة العراة .. الذين كانوا يعيشون فى العهد البائد أسوأ مما كانوا يعيشون عليه فى عهد الفراعنة العتاة ، والمماليك الجهلة الطغاة .

وعلى الرغم من عناية « عائشة » بالريف وولعها بالدفاع عنه ، فهى لا تنسى الشاطىء ، وله فى نفسها ذكريات لا تمحى .. ذكريات جميلة ، وذكريات حزينة ، وذكريات شاعرة ، فقد كان مدرج طفولتها ، ومراح صباها ومسرح أحلامها ، ومبعث وحيها وآلامها .. وقد شهد ذلك الشاطىء ورأى ، وسمع .. شهد مصرع أم شابة ، ورأى فاجعة بيت وأحزان أسرة .

ولعل ما فى نفس بنت الشاطىء من آلام حزينة وما فى كتابتها من لوعة وألم دفين حين كانت تدبج مقالاتها « صور من حياتها » فى « مجلة الهلال » يعود إلى هذه النفسية الحزينة التى ورثتها من أمها ، التى أصيبت قبل ولادة عائشة فى أمها الشابة التى نزلت إلى شاطىء النيل بدمياط ذات صباح وكانت تسكن عليه ، فتقدمت نحو مائه للوضوء ، فعثرت قدمها ، وكان الوقت وقت فيضان فسقطت فى مياهه وغابت فيها ، ولم يعثر على جثتها ، فكانت فاجعة أليمة أثرت فى نفس ابنتها التى كانت وقتئذ حاملا فى « عائشة » فانتقل هذا الأثر الحزين إلى عائشة وهى جنين ، وبقى ماثلا فيما تصوره من مآس وآلام ، بل ماثلا فى رنين صوتها الحزين حتى الآن ..

* * *

وبنت الشاطىء جديرة بأن تدعى « بنت بطوطة » فقد ولعت فى السنين الأخيرة بالرحلات ، قامت بها صيفا ، وقامت بها شتاء ، فسافرت إلى اسبانيا وفرنسا وسويسرا وانجلترا وإيطاليا والنمسا ، ورحلت إلى الحجاز والكويت وطشقند وسورية والعراق ، ورأت وسمعت وشاهدت وكتبت عما شاهدت ونافست ابن بطوطه فى رحلاته وكتاباته ، وإن لم تر مثله الهند والسند والصين وما فيها من عجائب العادات وغرائب المخلوقات .

وقد أوذيت « عائشة » وصبرت ، وجاهدت وظفرت ، وكانت فى حياتها عصامية على رغم الشدائد والعقبات . وقد جمعت عدة مواهب : فهى أديبة مجيدة ، وباحثة محققة ، وقصاصة مبدعة ، وزوجة شرقية فاضلة ، وربة أسرة محافظة .

***

وقد عنيت بنت الشاطىء بحياة أبي العلاء المعرى ، ودرسته دراسة طويلة فشرحت « رسالة الغفران » بجزأيها شرحاً حديثاً ، ووضعت عنه كتابين : الأول « الحياة الإنسانية عند أبي العلاء » وقد نالت عليه درجة الماجستير فى الآداب مع مرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٤١ . والثانى كتاب « الغفران » دراسة نقدية للنقد الذى حققته لرسالة « الغفران » وقد نالت عليه الدكتوراه من جامعة القاهرة .

ومع أنها معجبة بفلسفة أبي العلاء وأدب أبي العلاء وألفت فى حياة أبي العلاء ، لم تحمل حملة شعواء على « أبي العلاء » لرأيه فى « المرأة » الذى أبداه فى لزومياته ورسالة الغفران .. فلأبى العلاء رأى قد يخالف آراء عائشة عبد الرحمن ، كامرأة وزوجة وأم أولاد ، وقد يخالف آراء الدكتورة بنت الشاطىء كفتاة متعلمة برهنت على فوائد العلم والتعليم للمرأة فى حياتها الاجتماعية والشخصية .

فأبو العلاء المعرى ، فيلسوف متشائم يكره حياة البشر وما فيها من متاعب.. ويكره « المرأة » . ولكن كراهيته لها ليست لذاتها ، بل لأنها أحبولة من حبائل الحياة التى يكرهها ، ويود ألا يعيشها ، ولا يعيشها الناس على هذه الأرض . ولذلك ، لم يرد الاتصال بها ، وقد عاش عزباً فلم ينجب أولاداً لهذه الحياة التى يبغضها ويبغض كل من فيها من نساء ورجال ، كما قال :

فأفٍ لعصريهم نهارٍ وحندسٍ وجنسى رجالٍ منهمو ونساءِ

وكان يعتبر وجوده فى هذه الحياة جناية من أبويه عليه :

هـــذا جناه أبي علىَّ وما جنيت على أحـد

فلا عجب أن يحمل على المرأة لأنها هى سبب من أسباب عمران الحياة التى يتشاءم منها ، والتى هجر ملاذها إلى حيث عكف فى محبسه الثانى على العلم والفلسفة والأدب .

وإذا حمل أبو العلاء على أخلاق المرأة ، وكان له رأى فى تعليمها الكتابة

والعلوم ، فإن هذا الرأى يرجع أيضاً إلى وفائها للحياة ، وإلى محافظتها على النوع البشرى بما تمليه عليها وظيفتها الأنثوية . ولهذا كان يرى ألا تتعلم الكتابة والقراءة ، لا لأن القراءة والكتابة لا تفيد المرأة وترفع من شأنها وتهذب من إنسانيتها ، بل لأنها وسيلة من الوسائل التى تهيىء للمرأة أن توقع الرجل فى غيها ، أو فى غى الحياة التى يكرهها ، ويسميها « أم دفر » وأم الأذى والشر . وقد كان يفضل أن تتعلم النساء الغزل والنسج والردن[1] على تعليمهن القراءة والكتابة ، ويقول :

علموهن الغزل والنسج والرد ... ن وخلوا كتابة وقراءه

فصلاة الفتاة بالحمد والإخـ ... ـلاص تجزى عن يونس وبراءه

فهن يغوين الرجال بطبيعتهن إرضاء للحياة . وهو كما قلنا يكره هذه الحياة ويتشاءم منها ، وقد أصاب المرأه هذا الكره وهذا التشاؤم بلا ذنب جنته على أبي العلاء إلا أنها أحبولة من أحابيل الوجود ، بل هى أكبر أحبولة للوجود البشرى . وهى متعة فى رأيه تعقب ألماً وتورث حسرة كما جاء فى رسالة الغفران وهى لوفائها للحياة طبعت على ميول الحياة الدنيا من التغير والتقلب والكذب والسير تبعاً لأهواء الحياة لأنها صادقة الحب للحياة . وهى مخلصة لوظيفتها التى تتطلبها الحياة . ولهذا أمعن أبو العلاء فى النهى عن القرب منها ، حتى أنه نهى عن قرب الصبي من النساء إذا بلغت سنه العاشرة ، فقال :

إذا بلغ الوليد لديك عشراً ... فلا يدخل على الحرَم الوليدُ

فإن خالفتنى وأضعتَ نُصحى ... فأنت وإن رزقت حجى بليدُ

ألا إن النساءَ حبالُ غيٍّ ... بهن يُضيَّع الشرف التليدُ

فعيوب المرأة وذنبها عند أبي العلاء لا صلة له بعلم الأخلاق ، بل إنها مغلوبة على أمرها ، لأن الطبيعة جعلتها صاحبة رسالة تحقق الغاية منها بالمحافظة على النوع وحراسة النسل ، وخدمة الجسد . وهى جديرة بالتكريم فى نظر

---

(1) الردن بفتح الراء وسكون الدال هو الغزل على مغزل يدعى « المردن » .

الطبيعة ، جديرة بالحب فى نظر الحياة .

أما فى نظر « علم الأخلاق » ، فهى ناقصة ضعيفة السلوك لأن لهذا العلم قواعد وحدودا لا تتفق دائماً وسلوك المرأة ابنة الطبيعة المخلصة على أن قواعد علم الأخلاق ليست ثابتة فى كل زمان ومكان . !

وقد ذهب المتشائمون من الحياة ، والكارهون لها كأبى العلاء المعرى الى كراهة المرأة ، وإعتبارها فتنة من فتن الحياة ، ومفسدة من مفاسدها ، ووصفوها بأنها حية رقطاء ، وأنها وراء كل شر وشقاء .

ولكن هؤلاء المتشائمين ورجال الأخلاق الذين يضعونها فى موضعها من النقص والضعف ، لاينسون مالها من صفات كريمة وعواطف نبيلة وخدمات اجتماعية نافعة ، وما تقوم به من رسالة شريفة ذات أثر عظيم فى حياتنا كزوجة وفية صالحة ، وكأم بارة حنون ، وكشريك لا غنى عنه فى بناء الأسرة وبناء المجتمع الإنسانى . !

— ١٩ —

البطريق الأديب

عبد الرحمن صدقي

عبد الرحمن صدقي

البطريق .. أو البنجوين طائر من طيور الماء ، يعيش فى جنوب خط الاستواء يمتاز عن الطيور بأنه لا يطير ، وهو ذو أنفة وعزة واعتداد كبير قد قصرت أجنحته ، ولم تقصر همته ، يسرع كالسهم وراء صيده فى جوف البحر حتى يناله ، ولكنه بطريق فى مشيته على الأرض يخطو بخطى قصيرة ويمشى متحاملا على نفسه ، كأنما يحمل أثقالا تهتز معه يمينا ، ويهتز معها شمالا فى هدوء وجلال ، وأناة وطول احتمال

ألوف وفى أنيس . . طبع على الوفاء ، وعرف بين الحيوان بأنه من أوفى الأزواج ولعله أوفاها ، فهو يعيش ما عاش محبا لها ، مكرما لعشرتها ، أمينا لغيبتها ، وفيا لعهدها ، ويظل كذلك حتى بعد أن يطويها الردى . . !

وهو بالأستاذ عبد الرحمن صدقى أشبه . أو أن الأستاذ صدقى أشبه به ، وقد ارتضى هذا الشبه ، فكتب تحت صورته حين عرضها عليه الرسام هذه الأبيات :

يا قوم لا بحث ولا تحقيق	إن شئتمو ، أنا ذلك البطريق
أنا ذلك الطير المهيض جناحه	يمشى ، وحلم جناحه التحليق
أنا ذلك الطير الالوف فكل من	لاقى على وجه البسيط صديق
أنا ذلك اللاغى وفى ملغاته	معنى لدى أهل الفنون عميق
يا قوم أنصف واصف منطيق	أن قال أنى ذلك البطريق

فالبطريق ، أو عبد الرحمن صدقى له شخصية ممتازة يعرف بها ، حتى لمن لا يعرف اسمه ، وحسبك أن تزوره فى مكتبه أو بيته ، فترى رجلا قد وهبه الله بسطه فى الأدب والجسم ، شامخ القامة عظيم الهامة ، له عينان واسعتان كعينى الصقر ،

وشعر أسود تمرد على المشيب حتى لتحسبه شابا فى الخامسة والثلاثين وإن كان قد أربى على الستين ، وله أنف رومانى ثائر يدل على ثورة فى النفس ، واعتلاج فى الجوانح وإن لم يكن من الثوار المغرمين .

وقد كان لهذا الأنف قصة كاريكاتورية صنعها المرحوم الفنان محمد حسن المدير العام السابق للفنون الجميلة بوزارة التربية والتعليم ، فقد رسم لصدقى لوحة جميلة تمثله فى شخصية روميو وقف تحت نافذة جولييت يناجيها ويبثها هواه ، وقد طال هيامه ، فطالت قامته حتى حاذى النافذة فوضعت جولييت يدها على أنفه وهو غارق فى مناجاته لا يحس بحلاوة تلك اليد البضة الناعمة الحسناء ، وكأنما أنساه هذا الموقف كل شىء حتى يد حبيبته ، وحتى أنفه الرومانى الذى لا ينبغى أن ينسى !

* * *

والأستاذ عبد الرحمن صدقى لا يحب الدعاية لنفسه ، ولا يرضى أن تمشى فى ركابه ، أو تدنس فنه ، فعلى الرغم من أنه أديب كبير ، وشاعر من كبار الشعراء ، وباحث واسع الاطلاع ، فهو لا يكاد ينشر كل إنتاجه ولا يزهى بعلمه ووفرة اطلاعه .

ولعل الكثيرين لم يعرفوا أنه شاعر إلا بعد وفاة زوجته الأولى ونشره لديوانه « من وحى المرأة » فقد تفجرت شاعريته المطبوعة بقصائد فى رثاء زوجته ، تعددت ألوانها ، وتباينت فى جمال لوحاتها وبراعة تصويرها وابتداع خيالها ، وبلاغة معانيها ، وقد أربى على جميع من رثوا زوجاتهم ، وأتى بما لم يأتوا به من متنوع القصائد ، وكان من وفائه لزوجته الفقيدة ما يسمو على كل وفاء ، ومن وصفه لشمائلها الغراء ما يغرى الأزواج بتقدير شقيقة الروح وشريكة الحياة ، وحسبها أنها جمعت له الدنيا فى حياتها فأغنته وأمتعته وأسعدته :

جمعت لى الدنيا فأغنيت معدمى وأمتعت محرومى وزينت عاطلى

أدور بعينى كالشريد بلا هوى ولا منزل مثل الهوى والمنازل
وما منزلى إلا الذى أنت ملؤه وما من هوى إلاك بين العقائل

وقد تفتحت ملكة الشعر عند صدقى فى مدرسة الخديوية ، وكان تلميذا بها فنظم رثاء لأحد إخوانه ، ثم نظم فى موضوعات أخرى كان أكثرها فيما يمليه الشباب من عواطف . وساهم فى مقتبل شبابه سنة ١٩٢١ فى مباراة النشيد الوطنى التى ساهم فيها كبار الشعراء فى ذلك الحين فكان نشيده الرابع وقد رفعه فوق تلك المرتبة الأستاذ العقاد فى كتابه « الديوان » .

وقد عرفه قراء مجلة « الهلال » بمقالاته الممتعة وقصائده البليغة وألف فيما ألف « الشاعر الرحيم » عن حياة الشاعر الفرنسى بودلير . « وألوان من الحب » وهو مجموعة قصص ، و « أبونواس » تناول فيه قصة حياته ، ثم وضع عن خمريات هذا الشاعر « ألحان » . !

وعبد الرحمن صدقى كالبنجوين — كما قلنا — ألوف وودود . . فكل من يعرفهم أصدقاؤه ، وكل من يعرفهن صديقاته . . ولكن صداقته من طراز قوله فى ذكرى زوجته :

ونجلس فى حِضن الطبيعةِ ، صمتنا
مناجاتُها ، إن الطبيعة مَعْبَدُ
ونجلس للأشعار ندرسها معا
كأنْ ليس غيرَ الكتب فى العيش مَقصدُ
فلا درسَ إلا وهو عندكِ أرشد
ولا لَهو إلا وهو قُربك أرغدُ

فصداقة هذا الأديب وعشرته من هذا النوع ، فى المكتب والبيت ، حتى أنى لأذكر أن والدته أرادت أن تؤنس وحدته فى بيته بعد وفاة زوجته ولكنها وجدته لايفيق من الكتب والمطالعة ، ولا يكاد يجلس إليها أو يخاطبها

مرة أو مرتين فى اليوم ، فعادت إلى منزل أخيه ناجية بنفسها من عيشة الأدب ، وصحبة الكتب ، والاستغراق فى المطالعة والتفكير . !

***

ويغرم هذا الطريق بالقراءة ، ويقتنى مكتبة بها مئات الكتب فى منزله بمصر الجديدة ، وقد نظمها تنظيما دقيقاً ، وحين يفرغ من عمله يأوى إليها قارئاً ، باحثاً ، متفرغاً لقراءته وبحوثه عدة ساعات . وهذه الساعات هى أحب الساعات إليه فى حياته ، وأمتعها لروحه ، وأجملها لوجدانه ، وألذها لنفسه ، وأشوقها لعقله وتفكيره . . !

وقد مرض ذات يوم ، واشتد به عارض من عوارض الداء حتى ظن أنه سيودع الحياة بعد قليل ، فلم يأس على شىء أساه لكنوز الفن والعلم التى تحويها مكتبته الضخمة ، والتى لم تتسع له ظروف الحياة ليستمتع بقراءة مالم يقرأه منها خارج الوظيفة ، وخارج مشاغلة الرسمية ، وقد قال فى ذلك :

« لم يكن خاطر الموت يفزعنى ، ولكن كان يحز فى نفسى أن أموت قبل أن أشفى غلتى من القراءة . إن خزائن كتبى زاخرة بمئات من المؤلفات الممتازة فى غير لغة واحدة ، ولم تترك لى الوظيفة فسحة من الوقت لدراسة الجزء الأكبر منها » !

« وهنالك كتاباتى الكثيرة المبعثرة فى سياق السنوات فى الصحف والمجلات لقد كنت طوال هذه السنوات أطاول وأطاول فى جمع أشتاتها ونشرها فى بضعة مجلدات ، كما فعل غير واحد من الأدباء أصدقائى .. وهاقد فات الأوان.. وضاعت الفرصة إلى غير رجعة .. من ذا تراه يفكر فى جمعها ونشرها من بعدى ؟ هيهات ! . .

« وهنا – على ذكر خزائن كتبى – ذكرت أنى اقتنيت معظمها بالشراء من مخلفات من سبقونى إلى دار البقاء من محبى الثقافة وأهل الأدب وسرح بى الخيال فتمثلت كتبى – بعد موتى – مبعثرة فى أسواق الوراقين تتناقلها أيدى

الباعة من أنصاف المتعلمين ، وتطرح فى كل مكان مطارح الهوان حيث تباع بأرخص الأثمان . . أما كان الأولى لو أوصيت بها لدار الكتب حين كان فى العمر متسع ! . .

« هذه المكتبة . . لو كان لى ولد يرثها عنى . . إذن لصانها من الضياع ، وقام عليها فانتفع ونفع ! . .

« ثم أما كنت أموت أطيب نفساً ، لو رأيت إلى جانب فراشى – وأنا ألفظ النفس الأخير – ذلك الولد الذى هو استمرار لحياتى وبمائى بما يجرى فى عروقه من دمائى ، وما هو مركوز فيه من شمائلى وطباعى ؟

« ويتمثل عندها فى وهمى ذلك الولد الموهوم ، ولا يزال يتجسم الوهم حتى أحسبنى أرى « ولدى » رأى العين ، هنا إلى جانب فراشى ، فأمد فى الفضاء ذراعى لأمسح بكفى على رأسه وأباركه ، ثم أنتبه ويراجعنى وعيى ، ويثوب لى رشدى ، فترتد ذراعى فى موضعها إلى جانبى خائرة متراخية ! ! »

***

على أن البنجوين أو البطريق الأديب له خزانة أخرى حافلة بأنواع الآداب والفنون وثمرات الفكر ، خزانة لا تصل إليها أيدى اللصوص ولا أيدى الحساد الطامعين ، وهى فى قرارة قلبه وفكره يفتحها حيث يشاء ويغلقها حيث يشاء – تلك الخزانة التى قال عنها : « إنها كل نصيبنا نحن الأدباء فى هذه الحياة . وأنا بهذه الخزانة غنى قانع إذا جفت من حولى جنة الدنيا ، وتساقطت أوراق المنى فيها مثل أوراق الخريف المصفرة ، وزويت عنها الطرف أسفا ، وانطويت على نفسى مستوحشا تفتحت مغاليق خزانتى ، وانفرج ما بها رويداً رويداً من غير نأمة ولا صرير ، وتحركت دفائنها لعين خيالى ، كأنى فى حلم ، فيتمثل لى ، بل يخامر حواسى فيها طيف من أطياف الماضى الدفين ... طيف لحظة سعيدة القدم نورانية روحانية . خالصة من كل كدر ، صافية من أدنى شائبة ، كما يحيل تقادم العهد عصارة الكرم فى الدنان خمراً شعشعانية تلطف روحها ، وتلطف ، كأنما لم يبق فيها غير اللون والعطر

فأنعم من جديد بما نعمت به جوارحى من قبل ، ولكن فى هذه المرة نعيم كنعيم الخلد » !

ولقد تلمح الكثير من صوفية التفكير فى نثره وشعره ، وقد يغرب فى هذه الصوفية فى بعض مقالاته . أما شعره ، فإن صوفيته سهلة واضحة كسهولة نظمه ، وجمال معانيه ، ورقة ألفاظه .

وهو فى شعره الغزلى من الطراز البديع فى جمال المعنى وسلاسة الأسلوب ورقة الشعور . وقد وضع فيه ديوانا خاصا باسم « حواء والشاعر »

ولو أحسن العنوان لجعله : « الشاعر وحواء » لأنه فى غزله وحبه يبدو أنه الولوع بها ، المضحى من أجلها الساعى وراءها ، المسهد وحده مع النجوم يشكو ويتألم ويقول :

سهران وحدى مع النجوم نسبح فى غمرة السكون
فى الفكر مثلى وفى الوجوم تحلم مفتوحة العيون
بالحب قد كان أو يكون
مستوحد فى الدجى أهيم مجدد الشوق والحنين
أعيش فى حلمى القديم مع الليالى مدى السنين
لهفى على قلبى الحزين

هذا . . والبطريق الشاعر لا تعرف له حواء معينة ، أو عدد من بنات حواء هام بهن أو همن به ، وقال فيهن هذا الغزل الرقيق الذى حواه هذا الديوان الأخير والذى يستهوى قلوب العذارى لقد نظم ديوان « من وحى المرأة » فى رثاء زوجته المتوفاة فى سنة ١٩٤٩ أى منذ ثلاثة عشر عاماً ، وأودعه كل خواطره وأشجانه وآلامه . ولكننا حين نتصفح هذا الديوان نجد أن غزله كله بسائر أنواعه وأبوابه ليس فى حواء معينة ، بل فى حواء باعتبارها جنساً لطيفا يولع بجمالها الشاعر الفنان ولعاً وجدانياً عميقاً . ولهذا تغنى بحواء الخالدة وحواء الواحدة المتعددة وحواء الظافرة القاهرة وحواء الفخمة البيضاء وحواء الوديعة السمراء على ضفاف النيل وحواء الرشيقة الشقراء بين دمشق

وحلب ، وحواء الغربية الأطوار ، وحواء البدوية بنت الصحراء ، وحواء مصايف الإسكندرية ، وحواء حورية البحر بين الغرب والشرق . وحواء على عتبة الموت ، وحواء ملاك الرحمة ، وحواء الفقيدة فى ذكرياتها الجديدة .

ولعل هذا الديوان فى هذا الوضع فريد فى بابه ، وعجيب فى أبوابه ، فلم يسبق لشاعر أن تغزل بكل بنات حواء على اختلاف أنواعهن وأجناسهن وألوانهن ، ولكن عبد الرحمن صدقى شاعر مجدد وأديب مجدد ، ولقد جدد فى ديوان « من وحى المرأة » ؟ لجدير به أن يأتينا بتجديد آخر فى هذا الديوان الجديد . وقد قال فى حواء الواحدة المتعددة وخاطب فيها أمنا « حواء » :

أيا حواءُ عرشُـك قلبُ شاعرْ
فـلا تدعيـه يوماً غيرَ عامرْ

ومـا عهدي بآدم قال شعراً
ولـكن قلبُ من يهواك شاعرْ

لقد خطرتْ بناتك فى فؤادى
فكن عرائس الشعر الحرائرْ

وقـد طالعنه أنماط حُسْن
براها مُبدع فى الخلق قادرْ

- ٢٠ -

الببغاء النجيب

سليمان نجيب



سليمان نجيب
يا له من ببغاء ... عقله في أعصابه

سليمان نجيب

يا سيداً أبدع في المقالِ ويارئيساً فاق في المعالى
ما حيوانٌ مشبهُ الإنسانِ مرتلُ الآيات في القرآنِ
ذو مبسم صيغ من النُضارِ ومقلةٍ قد ركبت من قارِ
ومخلب يكسّر الصليبا ومنطق يفاخر الخطيبا
قد جمعت في ذاته ألوانُ كأنه في خَلقه بستانُ

هذا لغز طريف ، لطائر مترف ظريف ، حسن الهندام ، رفيع المقام ، يحكى للناس الكلام .. وضعه تاج الدين عبد الباقى اليمانى . كان مغرماً بهذا الطائر ، محباً لظرفه وأنسه ، حريصاً على اقتنائه ، معجبا برواثه . . فقد امتاز الببغاء عن سائر الطيور بجمال الخلق ، ودماثة الأخلاق ، وخفة الروح ، والقدرة على حكاية الأصوات بالتلقين والتعليم . وهو أنيس الملوك والأمراء والكبراء . وفى اختلاف ألوانه مايجذب العيون إليه . وفى صوته العجيب مايلفت الآذان إلى استماعه . يتناول كل شيء برجله حتى الطعام ، فكأنما الدنيا حقيرة عنده هينة عليه . وله منقار معقوف يكسر به ماصلب ، وينقب به ما تعسر نقبه . أشبه بقلم الكاتب القوى الجرىء ، أو القصصى الناقب البصير الذى ينقب المجتمع ، وينقد مساوئه وعيوبه .

ولو أن تاج الدين اليمانى تقدم به الزمن . ومر بدار الأوبرا[1] وشهد نبوغ مديرها الهمام فى المحاكاة والتمثيل وتأليف الروايات من بديع المعانى وفصيح الكلام ، لما الغز هذا اللغز ، ولأبدع فى صفات سليمان نجيب أكثر مما أبدع فى صفات الببغاء ، ولأتى فيه بالمعجزات . . !

(١) هذا المقال كتب فى حياة المرحوم الأستاذ سليمان نجيب أيام كان وكيلا للأوبرا سنة ١٩٥٢ . وقد وافق على رسمه « ببغاء » .

إن سليمان نجيب متعدد المواهب والمناقب ، يمتاز فى صفاته وطباعه ، حتى فى « نرفزته » . . ومع أنه يشترك مع الببغاء فى خفة روحه وصفاته الجميلة ، فهو يمتاز عنه بأن اباه ليس « سقاء » ! ... بل هو من علية القوم ، وخيرة العائلات وقد كان والده المرحوم الأديب المعروف مصطفى نجيب مديرا للاقلام العربيه بسراى عابدين ثم مديرا للادارة بالداخلية ، وكان صديقاً للزعيم مصطفى كامل ، وهو مؤلف « حماة الاسلام » و « أحلام الأحلام » ، وصاحب الاغانى المشهورة مثل :

« يا دايق النوم أوصف لى أماراته » ، و « الليل أهو طال وعرف الجرح ميعاده » إلى آخر ما نظم من هذه الأغانى التى اشتهرت فى الجيل السابق بين الجماهير .

أما خاله فهو المرحوم أحمد زيور باشا ، وكان رئيس وزارة من الوزارات المصرية ، ورئيسا للديوان الملكى ، ومديراً عدة مرات .

وإذا كان سليمان لم « يطلع » لخاله فيما تولى من مناصب ، فقد « طلع » له فى الظرف والفكاهة وكرم الأخلاق ، والاستهانة بالدنيا ، لأنها — كما قال سعد زغلول — : « أقل من أن يأسى عليها المرء » !

* * *

وكان لسعد زغلول « ببغاء » يقتنيه فى بيت الأمة ، ويتسلى معه فى أوقات فراغه ، لينسى بظرفه همومه السياسية ومتاعبها .. ذكروا أن المرحوم الدكتور محجوب ثابت كان يمر بهذا الطائر كلما زار بيت الأمة ، وكان رحمه الله من الظرف بحيث يطمع فيه أصدقاءه وعارفيه . وذات يوم أخذ المرحوم محمود فهمى النقراشى يلقن الببغاء هذه العبارة : « محجوب .. أبوك السقا مات » حتى أتقنها . !

وجاء محجوب ثابت كعادته لزيارة سعد باشا . وما كاد يمر أمام الببغاء حتى سمعه يقول : « محجوب » .. فالتفت فى دهشة . وشعر بالزهو من أن اسمه

أضحى على كل لسان حتى ألسنة الطيور . ولكن الببغاء لم يمهله كثيرا . ثم أسرع قائلا : « أبوك السقا مات » . فغضب محجوب ثابت غضبته المضرية وصاح مرددا : « والله مافعلها غير النقراشي .. » وسمع المرحوم سعد باشا ماحدث ، فأغرق فى الضحك .. !

* * *

وقد عاشر سليمان نجيب الوزراء ، وسامر الكبار ، ولكن لم يقتنوه كما يقتنون الببغاء ، بل صاحبهم وصاحبوه ، وصادقهم وصادقوه . فقد أمضى فى وزارة العدل مدة طويلة كان فيها سكرتيراً خاصاً لاثنى عشر وزيرا لهذه الوزارة . ومع ذلك لم تصبه منهم عدوى ، على الرغم من أنه كان من أبناء مدرسة الحقوق ، بل كان من حظه أن يشهد مصارعهم واحدا بعد الآخر متمثلا بقول ابن الرومى :

وأحسن من نيل الوزارة للفتى حياة تريه مصرع الوزراء

وأى مصرع عند الوزراء أشد من الاستقالة والإقالة .. !

وسليمان نجيب مؤلف مسرحى وكاتب كبير ، وليس هاويا فقط للتمثيل . فقد وضع للمسرح درراً نفيسة ، وروايات شائقة ستبقى على الزمن شاهدة بنبوغه وتضحيته من أجل ترقية هذا الفن فى بلاده . ولعل أحب رواياته إليه ، وأقربها إلى نفسه : « فى بيوت الناس » و «أخيراً تزوجت» و «الغيرة» و « ٦٦٧ زيتون » وهو كسليمان الحكيم الذى كان يرى العفاريت ولا يراها الناس كما ترى فى روايته : « عفريت مراتى » .. !

ولم يترك فرصة للظهور على المسرح مع فرقة أنصار التمثيل منذ سنة ١٩١٥ حتى انتهزها ومثل معها عدة مسرحيات . وقد عاون الفرقة المصرية مرات عدة بالاشتراك معها فى روايات ألفها أو اقتبسها من المسرح الأوربى ، وكان فيها البطل الأول ثم غزا الشاشة البيضاء ، فشهدت منه السينما ما رفع شأنها فى مصر وسمعتها فى الخارج ، وما أرضى الفن وأعجب به الجماهير .

وفى حديقة الحيوان بالجيزة « ببغاء » يدعونه : « الفنان » ولد فى هذه الحديقة قبل أن يولد الترام فى القاهرة ، وعاصر الحبرة واليشمك ؟ وبائع القطط على ظهور الجمال ، وشهد عصر الحمير والبغال كما شهده « سليمان » وكما ركبها من العتبة إلى سائر أحياء القاهرة فى سالف الأزمان . وكان ركوب الترام أو الكهربائية كما كان يدعى فى ذلك الحين بدعة يغنى لها فى صباه تلك الأغنية .

الكهربائيـــة . . . الكهربائيـــة
طلعوها للمنشية ... ونزلوها اللازبكية

وهى أغنية كان أهل القاهرة فى الجيل الماضى ينشدونها حين أنشىء الترام لأول مرة .

وكان سليمان نجيب لا يميل (فى حياته) إلى إخفاء عدد السنين التى قضاها على ظهر الأرض أو على ظهر المسرح . وكان يعترف بأن عمره اثنتان وخمسون سنة فى القرن العشرين » .

وقد صدق فى ذلك . أما القرن التاسع عشر ، فليس له عنده حساب . . وماله ولهذا القرن ، أو ليس هو فى نشاط الشباب ، ومازال فى بهجة الشباب ، وعفرتة الشباب أيضاً التى تنسيه هذا القرن وأهل هذا القرن ولو كان منهم ذو القرنين . . !

* * *

كان سليمان نجيب رئيسا لجماعة أعضاء التمثيل التى أنشأها المرحوم محمد عبد الرحيم وجمع فيها طائفة من الشباب المثقفين للنهضة برسالة المسرح المصرى فاستطاع سليمان نجيب أن يجعل من هذه الجماعة ، مدرسة راقية فى التمثيل تخرج فيها كثير من أعلام المسرح .

وقد اعتزل سليمان وظيفته فى وزارة العدل ليتفرغ لخدمة المسرح فعين وكيلا لدار الأوبرا ، وكان منصب المدير فى هذه الدار وقفا على الأجانب الإيطاليين فى الغالب . ثم حدث حادث عجيب ظل يردده طول حياته لأصدقائه وسمعناه يرويه فى إحدى جلساته ، فقال إنه فى الوقت الذى عين فيه وكيلا لدار

الأوبرا كان مديرها نصف أجنبي » . وكان هذا المدير يقيم فى بنائها إقامة دائمة ، وحينما بلغ سن الإحالة على المعاش ووجب أن يخرج من دار الأوبرا ويبحث عن مسكن ليحل محله سليمان فى منصب المدير — وكان المرشح الوحيد بعده لهذا المنصب — بكى الرجل أمام سليمان بكاء حاراً ، واسترسل فى البكاء حتى تأثر سليمان لحاله ، وبكى لبكائه ووعده بأنه لن يدخر جهداً فى سبيل السعى لمد خدمته فى الأوبرا عامين آخرين . . !

وسافر سليمان إلى الإسكندرية لقضاء بعض الأعمال ، ثم عاد إلى القاهرة فقصد قصر عابدين حيث قابل المرحوم « أحمد حسنين باشا » رئيس الديوان فى ذلك الحين ، وكاشفه برغبته فى أن يلتمس من « الملك السابق » مد خدمة مدير الأوبرا الأجنبي رحمة بحاله . . !

فسأله أحمد حسنين :

— ولكن كيف تطلب هذا الطلب ياسليمان . . وأنت المرشح الوحيد لهذا المنصب إذا خرج هذا الرجل ؟ !

فأجاب سليمان :

— أعرف ذلك يا باشا ، ولكن الرجل مقطوع من شجرة وهو فقير لا يملك غير مرتبه ، وأنا لست فى حاجة إلى هذا المنصب ، وأستطيع أن أنتظر .

فابتسم أحمد حسنين وقال :

— أتعلم ياسليمان أن هذا الرجل الأجنبي كان هنا منذ لحظات ، وكان يسبك أمامى ويتهمك بأشياء مزرية رجانى أن أبلغها إلى الملك ، قائلا إنك لا تصلح لإدارة الأوبرا . وبهت سليمان لحظة ، ولكنه عاد فقال لأحمد حسنين :

— معلهش يا باشا . . أنا لا أزال عند رجائى فى مد خدمته !

وعاد سليمان إلى الأوبرا فى اليوم التالى ، ففوجىء بأن الرجل قد أسلم الروح ، فعجب سليمان لتصريف القدر ، وقال :

— على كل حال . . رحمه الله . . وغفر له .

كان يروى سليمان هذه القصة لأصدقائه عدة مرات ، ويعقب عليها قائلا :

— أو بعد هذا . . ينكر أحد وجود الله ؟ !

* * *

وقد كان هذا الببغاء الفنان يطير كل عام إلى أوربا بعد أن أصبح مديرا لدار الأوبرا ، ويطوف بمسارح انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ، ويدعو أحسن فرقها إلى موسم التمثيل بالقاهرة ، ليمتع المصريين ولاسيما الذين لا تمكنهم ظروفهم من مشاهدة هذه الفرق فى بلادها ، ويطلعهم على أرقى ما وصل إليه فن المسرح فى تلك البلاد ، وليكون وجود هذه الفرق فى مصر بما تقوم به من مسرحيات عالمية ، وتمثيل فنى راق ، فرصة مشجعة على تقدم المسرح المصرى ، ورقى الممثلين المصريين ، بالاستفادة من فنها فى الإخراج والتمثيل ، غير أنه كان يشكو من أن الممثلين والمخرجين المصريين لا يحضرون كثيرا هذه المسرحيات . وكان يحز فى نفسه ألا يرى أحدا منهم حاضرا فى تلك الليالى التى تقوم فيها الفرق الأجنبية بالتمثيل على مسرح الأوبرا ، ويقول :

— نحن نأتى لهم بالمدارس والأساتذة إلى بلادنا ليتعلموا ويتقدموا ولكنهم لا يريدون أن يتعلموا ولا أن يتقدموا ، فأمرنا لله ، ومنهم لله ! !

* * *

ويحكى لنا الأستاذ صالح جودت عن طرائف صديقه سليمان أنه كان رحمه الله من هواة سباق الخيل ، وكان هذا السباق أكبر هواياته ، وقد ابتلع أكثر أمواله ، فقد كان يلعب كثيرا ويخسر كثيرا ولم يترك من المال بعد وفاته إلا القليل .

وقد رآه صالح جودت ذات يوم فى ميدان السباق ، وكانت « نرفزته »

الظاهرة تدل على نه أخسر كثيرا ، فسأله صالح :

– ألا تدلنى على حصان طيب فى الشوط القادم ؟

فصاح سليمان محنقاً وقال :

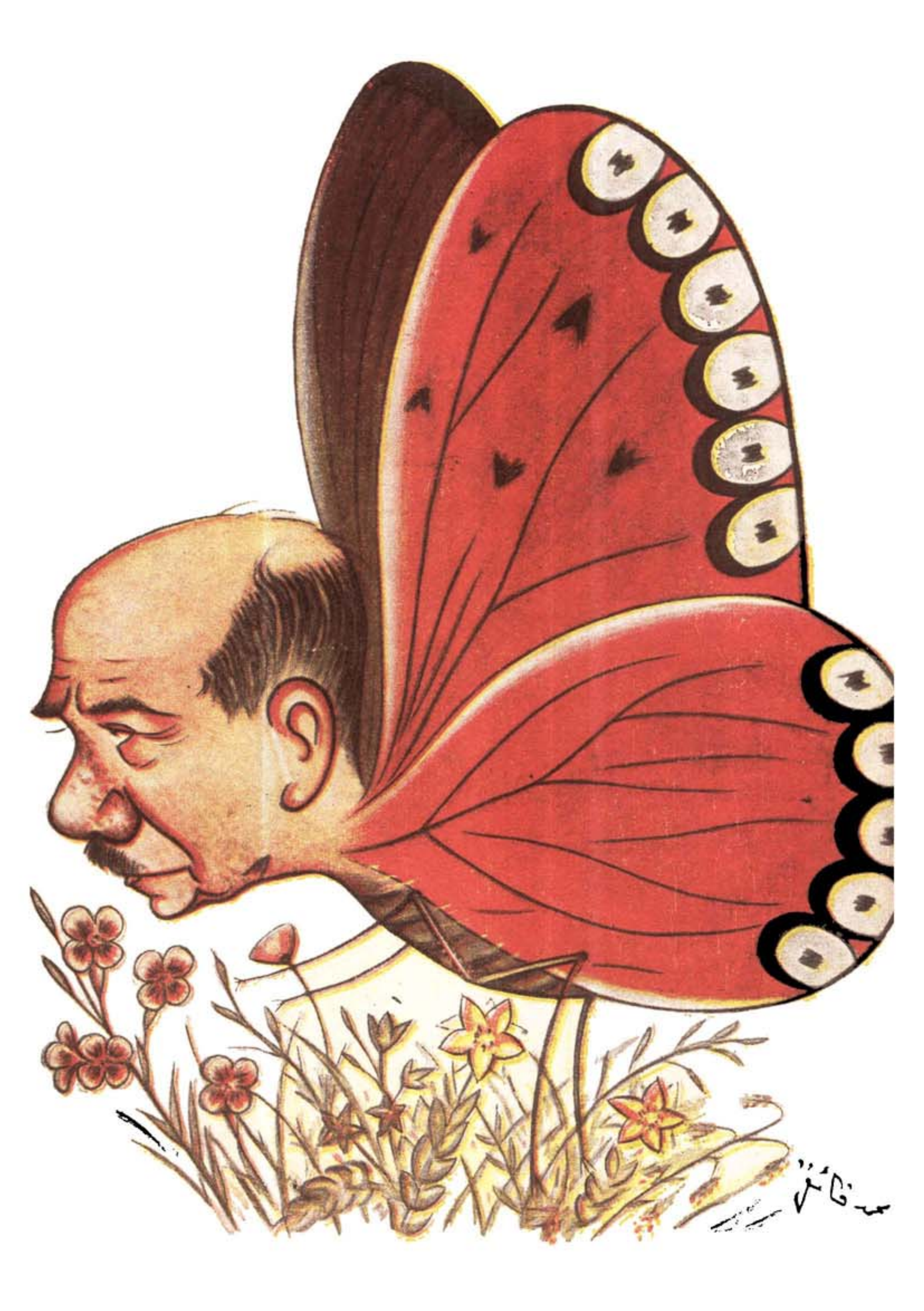
– إنت عاوز تاخد حصان من حمار ؟!!

وهكذا كان رحمه الله ظريفا فى جده ولهوه ، وفى مزاحه «وزفزته» . وكان قبل ذلك و بعد ذلك ذا خلق كريم ، وقلب رحيم ، وإيمان بالله عظيم .

- ٢١ -

فراشة الأزهار

أحمد رامي[١]



احمد رامی

احمد رامى

لا تصدقْ ما يقول الشعراء فالذى قالوه فى الحب هَباء
كلما استهواهمو حسنٌ مضوا يُرسلون الشعرَ فيه والغناء
لا يقرون على حب ولا يستطيعون على حال بقاء
حبهم وقف على أنفسهم وهوى الناس التفانىَ والفداء
(ابن زيدون) : ما الذى تعنين ؟
(ولادة) : أعنى أنكم كفراش الليل تهوون الضياء

وكذلك الشاعر أحمد رامى — كما قالت ولادة فى تمثيليته الشعرية « غرام الشعراء » — من فراش الليل يهوى الضياء ، ويرسل الشعر والغناء ، ويسبح فى وجده يناجى طيف الحبيب السارى ، تارة بصوت « سومة » كوكب الشرق ، الذى يهيج الشجو فى مسمعه ، ويبعث المكنون من أدمعه ، ويدب فى نفسه دبيب المنى . وأخرى وهو سهران وحده ، ينظم أغانيه الشجية ، والوجود نائم من حواليه ، يستمع فى أحلامه إليه ، ويأسى عليه ، وهو معذب فى لواعجه ، يحترق فى لياليه بنوره وناره ، وهو محروم من كل شىء « حتى الجفا محروم منه » ، فيجرى بخياله وراء الحبيب ، ويناشده ويناجيه : « تعال نسهر سوا . . يطول حديث الهوى » . ولكن الحبيب لا يجيب ، لأنه من نوع غريب ، لعله أصم أو أبكم . أو لا يحس ولا يفهم !

وقد يكون رامى من فراش النهار ، مما يستاف بدائع الأزهار ، ويستقبل الشمس فى موكب الأنوار ، ويهيم فى الحدائق مع الأطيار ، متأرجحا بجناحيه كلما « غنى الربيع » وابتسم الكون . وطربت الحياة ، وحفلت الدنيا بالآمال السعيدة . والمناظر البهيجة . والمعانى الحلوة والجمال الفتان .

والفراشة تهوى الجمال . وتتعشق النور ولو كان نارا . وهى من أحسن

الأحياء ذوقا . وأحلاها لونا . وأخفها ظلا . لا ثقل فيها ولا استثقال . ولا عداء منها ولا اعتداء . وليست ضارة ولا مضرة . بل قد يثقل عليها الغير . فلا تثقله . ويعتدى عليها فلا تعتدى عليه . ويضرها فلا تضره . . وكذلك رامى منذ نشأ . يهيم فى وادى الجمال . ويعيش بين رياض الخيال ولا تطيب له الحياة إلا إذا كان بين بنات الشعر . وكواكب الغناء هائما سعيدا تسمعه يقول :

هذه روضة وهـــذى طيور تتنـــاغى وللغدير خرير
وذكاء عند الأصيل طمى منها على الكون عسجد منثور
فتمتع بما ترى من جمال الكون وانس الذى تكن الصدور
من غرام مبرح وشقاء فى حياة ميسورها معســـور
كم بكينـــا فما أفاد بكانا ووقفنا والعمر ركب يسير

ولعله تأثر فى ذلك بعمر الخيام منذ ترجم رباعياته فى فجر شبابه سنة ١٩٢٣ فقد أرسلته دار الكتب المصرية فى ذلك الحين إلى باريس لدرس فن المكتبات ، فدرس معها اللغة الفارسية فى مدرسة اللغات الشرقية ، فقرأ على أساتذته فى هذه اللغة كتاب ألف ليلة وليلة ، وجلستان السعدى ، وشاهنامة الفردوسى ، وتاريخ سلاطين خوارزم ، وتاريخ جنكيزخان . ثم عثر على نسخة من رباعيات الخيام ، فانقطع لترجمتها عن الفارسية ، وصادف حين ذلك أن وصله نعى أخيه الشقيق الأكبر فى دار غربته فاستمد من حزنه عليه قوة على تصوير آلام الخيام وفلسفته فى الحياة . . ثم عاد إلى مصر وعادت معه شجونه فصادف أم كلثوم ، وكانت قد عرفته قبل أن تراه من قصيدته التى مطلعهـا :

الصبُّ تفضحه عيونُه وتنمُّ عن وجدٍ شئونُه
إنّا تكتّمنا الهـــوى والداءُ أقتـــله دفينُه

فغنت هذه القصيدة ، وكان وقتئذ يدرس فى باريس .

ورأته لأول مرة فى حفلة أقيمت لها بحديقة الأزبكية ، فارادت أن تحييه

فغنت فى الوصلة الثانية هذه القصيدة ، واتصل بينهما الود ، وأفنى حياته فى نظم أغانيها ، كما تفنى الفراشة حياتها فى النور والنار ٠٠ !

واجتمع من غناء أم كلثوم وأغانى رامى ثروة فنية لهذا الجيل ، امتزج فيها جمال الصوت ، ببديع النظم وحلاوة العبارة ، وكانت من أجمل ما يترجم عن مكنونات العواطف ، وخلجات النفوس .

وليس هناك من يعرف أحمد رامى إلا يعرف فيه الرقة والصفاء ، والمودة والإخاء ، وطهارة القلب ، وأنس المجلس وهو فى الشعراء أشبه بالبهاء زهير فى سهولة ألفاظه ، والعباس بن الأحنف فى رقة معانيه ، وأبى العتاهية فى زهده واستهانته بالحياة ، وابن الرومى فى تشاؤمه وسخطه على الدنيا وعلى الحظ . . !

أين سجعُ الهزارِ من صرخة البو م صراخاً يثير قلبَ السكونِ
تعبتْ فى الظلام تُنذر عيشى بنصيب المضيَّع المغبـــونِ
أنتِ يا بومُ إنْ بكيتِ على النا س فبكىٌ على فؤادى الحزينِ
رجِّعى كل محزن من أغانيـــك فإنى أهوى الذى يبكينى
إنما الدمع راحة فأفيضيـــه أروّحْ عنى بسكْب شئونى

والحق أن أحمد رامى مغبون فى حياته ، فقد استغله أهل الفن لنعيمهم وثرائهم ، دون أن يكون له نصيب فى هذا النعيم والثراء ، واستغلته « وزارة المعارف » فى العهد الماضى دون أن تحله المكانة التى تخصص لها ، أو تنى له بما يستحق ، وبما أضاع فيه شبابه وحياته بباريس ودار الكتب ، بل تخطته مرات ومرات وظنت أنها تعدل حين تظلمه ، وتصيب الحكمة حين تخطىء إليه ، وتوفق حين تحيد عن إنصافه . وليس فيما ظلمت وأخطأت من عدالة ولا حكمة ولا توفيق ٠٠ !

* * *

وقد اشتهر رامى مدة من الزمان بلقب « شاعر الشباب » حتى بعدما ولى عنه الشباب ، وأربى فى سنه على الستين . ولم يشتهر بهذا اللقب كما يظن الكثيرون

لأنه عاصر طائفة من كهول الشعراء وشيوخه أمثال أحمد شوقى ، وحافظ إبراهيم ، وخليل مطران ، والشيخ عبد المحسن الكاظمى ، وجميل صدقى الزهاوى ، ولكنه كان بعد عودته من باريس ينشر قصائده ومقطوعاته الشعرية فى مجلة تدعى « الشباب » . وكان صاحب هذه المجلة حين ينشر هذه القصائد والمقطوعات يلقبه بشاعر الشباب . أى شاعر مجلة الشباب ، كما كانت جريدة الأهرام فى عهد أنطون الجميل تلقب صديقنا الأستاذ محمد عبد الغنى حسن « شاعر الأهرام » حين تنشر له إحدى القصائد !

ولكن الناس نسوا هذه المجلة ، وصار الأستاذ أحمد رامى يلقب بهذا اللقب حتى بعد احتجابها عن القراء .

* * *

ويلاحظ فى شعر رامى أنه تسوده الفجيعة والحزن والأسى والقلق والأنين ، ويرجع ذلك إلى حياته التى عاشها منذ الصبا ، وما مر به من متاعب وأشجان ، فقد ذاق مرارة اليتم فى حياة والده وبعد وفاته . فقد كان هذا الوالد طبيباً موظفاً أمضى معظم حياته بعيداً عنه بالسودان وقد عاش مع والدته فى هذا القطر الشقيق ، أما أحمد رامى فقد عاش مع جده وعمه بالقاهرة ، فحرم حنان والده فى صباه وشبابه ولذلك يقول فى رثائه حين توفى سنة ١٩١٩ .

يامن قضيتَ العمرَ نضو اغترابْ	حتى توسدتَ فراشَ الترابْ
لكل ناء عن حمى أوبة	وأنت لا يؤمل منك الإيابْ
مر الصبا من غير ما « يا أبى »	بها أناديك وجاءَ الشباب
لم أتمتعْ من أبى مرة	بمجلس حاو نضير الجنابْ
نشأت فى يتم ولى والد	فما اكتفى الدهر بهذا العــذابْ
وزادنى أن غاله فانطوى	بموته الصفو وعم المصابْ

* * *

ولقد اتجه منذ شبابه الأول إلى شعر الغزل بالأسلوب الفصيح ، وهو يذكر أن أول كتاب قرأه ، وكان له أكبر الأثر فى نفسه فى ذلك الحين هو كتاب

« مسامرات الحبيب فى الغزل والنسيب » فتعشق هذا الكتاب لأنه يجمع طائفة من أشعار العاشقين فى معانى الحب والجمال ، فرشف منه كثيراً ، وتنقل بجناحيه الشابتين على أغصانه ، وامتص من حلاوة أزهاره . وهو وقتئذ فتى مراهق فى الدراسة الثانوية بالمدرسة الخديوية .

وكان قبل ذلك قد تأثر فى طفولته بمشاهد الطبيعة فى جزيرة « طاشيوز » باليونان وهى جزيرة صغيرة قريبة من « قولة » وكانت ملكاً للخديو السابق عباس حلمى الثانى ، فاختار والده طبيبا لها ، فسافر معه وهو فى سن السابعة ، ومكث بها عامين ، ثم عاد إلى القاهرة وقد تفتح خياله على ما رآه فى تلك الجزيرة من المشاهد الطبيعية بين أشجار الفاكهة وغابات اللوز والبندق ، وقد اكتست فى أوقات الربيع بمختلف الألوان ، وازدانت ببدائع الأزهار وترددت فيها اصوات الأطيار ، فعاش هذه الفترة القصيرة بين رياضها يرشف من محاسنها ، وتنطبع فى نفسه صور الطبيعة الجميلة ، التى كان لها أثرها فيما أنتج فى شبابه ! .

ولقد كانت دراسته فى باريس — وهى مدينة النور — فرصة سانحة ليمتص من أزهار الأدب ، ويقتبس من أنوار العلم . . والفراشة دائماً تهوى الضياء وتتجه إلى النور ، فتلون ذوقه وحسه بما مر به من صور وأشكال وأضواء . . !

* * *

وقد نظم شعره كله قبل أن يسافر إلى باريس باللغة الفصحى ; ولكنه بعد أن عاد منها والتقى بأم كلثوم أخذ ينظم الأغنية بالعامية ويقول الزجل ليمد هذا الصوت الجميل بما يغنيه عن الأغانى الضعيفة والمبتذلة ، التى كانت سائدة فى ذلك الحين ، وكانت هى لا تختار إلا القصائد والأناشيد الراقية وتهوى نفسها أن تغنى الأغانى الراقية ، فوجدت فى رامى ذلك المؤلف الأغنية الجديدة التى أحدثت انقلابا فى فن الأغانى العربية ، فغنت له بعد قصيدته : « الصب تفضحه عيونه » أول أغنية نظمها لها باللغة العامية سنة ١٩٢٥ ، ومطلعها :

خايف يكون حبك ليَّه شفقه عليَّه
وانتى اللى فى الدنيا ديه حظى عنيَّه

« وضى عنيه » تعبير لايصدر إلا عن « فراشة » تهوى الضوء والنور .. !

وقد نظم من هذه الأغانى لأم كلثوم ما يزيد على ثلثمائة أغنية منذ عرفها إلى اليوم . وألف للأستاذ محمد عبد الوهاب عدة أغان غناها هذا الموسيقار فى اسطواناته وبعض أفلامه .

ولعل الكثيرين لا يعرفون أن رامى مؤلف مسرحيات قبل أن يكون مؤلف أغان . فقد ألف وترجم نحو خمس عشرة قصة للسينما والمسرح منها فيلم دنانير ، ومسرحيات شيكسبير ، مثل النسر الصغير ، ويوليوس قيصر ، والعاصفة مما زود به مسارح يوسف وهبى ، وفاطمة رشدى وغيرهما . ولكنه اشتهر بالأغنية ، وطارت شهرة تلك الفراشة اللطيفة فى أدب الأغانى حيث تصدح بها بلابل الغناء فى الليالى الساهرة الحسناء ، وحيث تسجع الأطيار بجمال الأزهار وحيث يحلو الطرب فى حديقة الادب !! .

فهرس



الدار القومية للطباعة والنشر
١٥١ شارع عبيد - روض الفرج
تليفون { ٤٠٧٥٣ / ٤٢٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون: ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤

العدد ٣٨ الثمن ٥٠ قرش